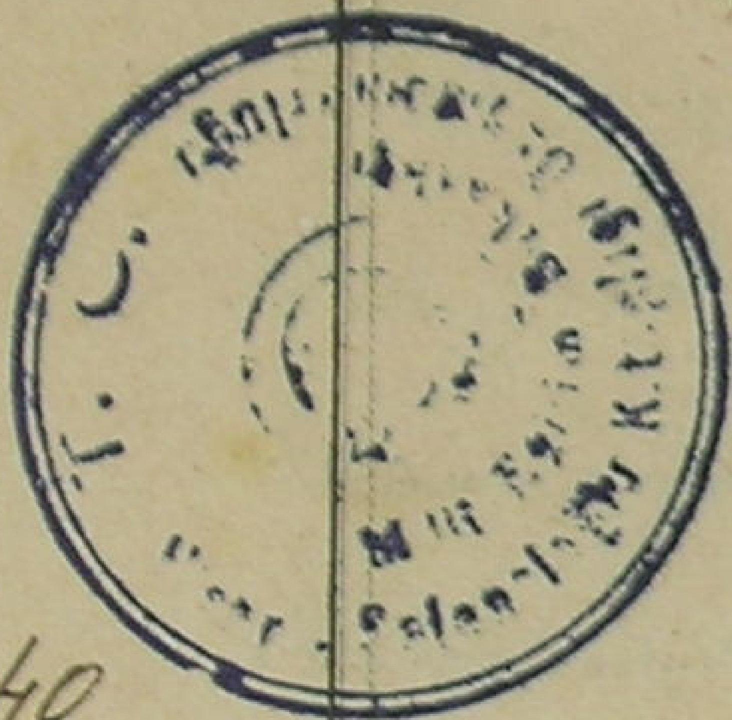
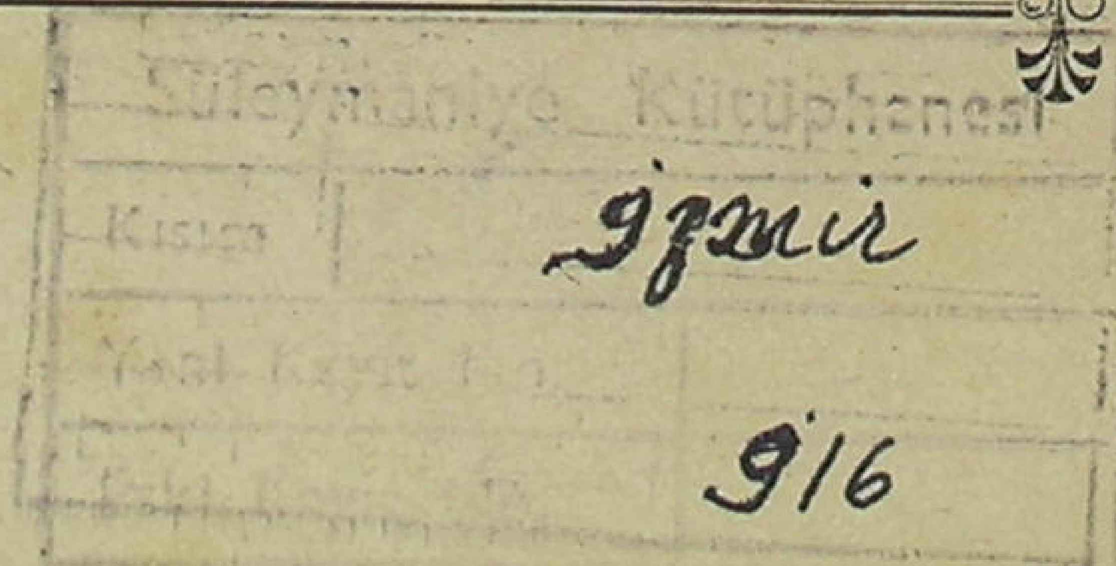
رسالة في مداواة النفوس . وتهذيب الاخلاق والزهد في الرذائل

تأليف الامام النحرير
الوزير الحافظ الحجة امام النقاد
أبي محمد علي بن احمد بن
سعيد بن حزم الاندلسي
الظاهري رحمه الله
تعالى وعفا عنه
آمين



ووجد بطرة الاصل بعد ما تقدم ما نصه :
مما عني بجمعه برسم مطالعة العبد الفقير الى رحمة ربه الكريم المقر العالي الناصري محمد ولد المقر المرحوم (بلغه الله نهاية الآمال وختم له بصالح الاعمال بمحمد وآله)

(طبع على نفقة الفاضل)
(الشيخ مصطفى القباني الدمشقي سنة ١٣٢٣ هجرية)
مطبعة النيل بشارع محمد على بمصر





بسم الله الرحمن الرحيم

رب يسر يا كريم

قال ابو محمد بن علي بن احمد بن سعيد بن حزم الفقيه الاندلسي رحمه الله . الحمد لله على عظيم مننه . وصلى الله على محمد عبده وخاتم انبيائه ورسله . وأبرأ اليه تعالى من الحول والقوة . وأستعينه على كل ما يعصم في الدنيا من جميع المخاوف والمكاره . ويخلص في الاخرى من كل هول ومضيق (أما بعد) فاني جمعت في كتابي هذا معاني كثيرة أفادنيها واهب التمييز تعالى بمرور الايام وتعاقب الاحوال بما منحني عزوجل من التهمم بتصاريف الزمان والاشراف على أحواله حتى انفقت في ذلك اكثر عمري وآثرت تقييد ذلك بالمطالعة له والفكرة فيه على جميع اللذات التي تميل اليها اكثر النفوس وعلي الازدياد من فضول المال وذممت كل ما سبرت من ذلك بهذا الكتاب لينفع الله تعالى به من يشاء من عباده ممن يصل

اليه ما اتعبت فيه نفسي واجهدتها فيه واطلت فيه فكري فيأخذه عفواً وأهديته اليه هنيئاً فيكون ذلك أفضل له من كنوز المال وعقد الاملاك اذا تدبره ويسره الله تعالى لاستعماله وأنا راج في ذلك من الله تعالى أعظم الاجر لنيتي في نفع عباده واصلاح ما فسد من أخلاقهم ومداواة علل نفوسهم وبالله تعالى أستعين

فصل في مداواة النفوس واصلاح الاخلاق الذميمة

لذة العاقل بتمييزه . ولذة العالم بعلمه . ولذة الحكيم بحكمته ولذة المجتهد لله عز وجل باجتهاده اعظم من لذة الآكل بأكله والشارب بشربه والواطئ بوطئه والكاسب بكسبه واللاعب بلعبه والآمر بأمره . وبرهان ذلك أن الحكيم والعاقل والعالم والعامل واجدون لسائر اللذات التي سمينا كما يجدها المنهمك فيها . ويحسونها كما يحسها المقبل عليها . وانما يحكم في الشيئين من عرفهما لا من عرف احدهما ولم يعرف الآخر . اذا تعقبت الامور كلها فسدت عليك وانتهت في أخذ فكرتك باضمحلال جميع احوال الدنيا الى ان الحقيقة انما هي العمل للآخرة فقط لان كل امل ظهرت به فعقباه حزن . اما

بذهابه عنك واما بذهابك عنه ولا بد من احد هذين السبيلين الا العمل لله عز وجل فعقباه على كل حال سرور في عاجل وآجل . أما العاجل فقلة الهم بما يهتم به الناس وانك معظم من الصديق والعدو . وأما في الآجل فالجنة . تطلبت غرضاً يستوي الناس كلهم في استحسانه وفى طلبه فلم اجده الا واحداً وهو طرد الهم فلما تدبرته علمت ان الناس كلهم لم يستووا في استحسانه فقط ولا فى طلبه فقط . ولكن رأيتهم على اختلاف اهوائهم ومطالبهم ومراداتهم لا يتحركون حركة اصلا الا فيما يرجون به طرد الهم ولا ينطقون بكلمة اصلا الا فيما يعانون به ازاحته عن انفسهم . فمن مخطئ وجه سبيله . ومن مقارب للخطاء . ومن مصيب وهو الاقل . فطرد الهم مذهب قد اتفقت الامم كلها مذ خلق تعالى الله العالم الى ان يتناهى عالم الابتداء ويعاقبه عالم الحساب على ان لا يعتمدوا بسعيهم شيأ سواه . وكل غرض غيره ففى الناس من لا يستحسنه اذ في الناس من لا دين له فلا يعمل للآخرة . وفي الناس من اهل الشر من لا يريد الخير ولا الأمن ولا الحق . ومن الناس من يؤثر الخمول بهواه وارادته على بعد الصيت . وفي الناس

من لا يريد المال ويؤثر عدمه على وجوده ككثير من الانبياء عليهم السلام ومن تلاهم من الزهاد والفلاسفة . وفي الناس من يبغض اللذات بطبعه ويستنقص طالبها كمن ذكرنا من المؤثرين فقد المال على اقتنائه . وفي الناس من يؤثر الجهل على العلم كاكثر من نرى من العامة . وهذه هى اغراض الناس التى لا غرض لهم سواها . وليس في العالم مذ كان الى ان يتناهى احد يستحسن الهم ولا يريد الا طرحه عن نفسه . فلما استقر في نفسي هذا العلم الرفيع وانكشف لي هذا السر العجيب . وانار الله تعالى لفكري هذا الكنز العظيم . بحثت عن سبيل موصلة على الحقيقة الى طرد الهم الذي هو المطلوب النفيس الذى اتفق جميع انواع الانسان الجاهل منهم والعالم والصالح والطالح على السعي له فلم اجدها الا التوجه الى الله عز وجل بالعمل للآخرة . والا فانما طلب المال طلابه ليطردوا به هم الفقر عن انفسهم . وانما طلب الصوت (١) من طلبه ليطرد به عن نفسه هم الاستعلاء عليها . وانما طلب اللذات من طلبها ليطرد بها عن نفسه هم فوتها . وانما طلب العلم من طلبه ليطرد

(١) الصوت كالصيت والصات والصيتة الذكر الحسن

به عن نفسه هم الجهل . وانما هش الى سماع الاخبار ومحادثة الناس من يطلب ذلك ليطرد بها عن نفسه هم التوحد ومغيب احوال العالم عنه . وانما اكل من اكل وشرب من شرب ونكح من نكح ولبس من لبس ولعب من لعب وكنز من كنز وركب من ركب ومشي من مشي وتودع من تودع ليطردوا عن انفسهم اضداد هذه الافعال وسائر الهموم . وكل ماذكرنا لمن تدبره هموم حادثة لابد لها من عوارض تعرض في خلالها وتعذر مايتعذر منها وذهاب مايوجد منها والعجز عنه لبعض الآفات الكائنة وايضاً سؤشح(١) بالحصول على ماحصل عليه من ذلك من خوف منافس اوطعن حاسد اواختلاس راغب او اقتناء عدو مع الذم والاثم وغير ذلك . ووجدت العمل للآخرة سالما من كل عيب خالصا من كل كدر . موصلا الى طرد الهم على الحقيقة . ووجدت العامل للآخرة ان امتحن بمكروه في تلك السبيل لم يهتم بل يسر اذ رجاؤه في عاقبة ماينال به عون على مايطلب وزايد في الغرض الذي يقصد . ووجدته ان عاقه عما هو بسبيله عائق لم يهتم اذ ليس مؤاخذاً

(١) هكذا في الاصل المنقول عنه ولم يظهر توجيه لصحة العبارة

بذلك فهو غير مؤثر في مايطلب . ورأيته ان قصد بالاذى سر وان نكبته نكبة سر . وان تعب فيما سلك فيه سر . فهو فى سرور متصل ابدا وغيره بخلاف ذلك ابدا . فاعلم انه مطلوب واحد وهو طرد الهم وليس اليه الا طريق واحد وهو العمل لله تعالى فما عدا هذا فضلال وسخف . لاتبذل نفسك الا فيما هو اعلى منها . وليس ذلك الا في ذات الله عز وجل . في دعاء الى حق . وفى حماية الحريم . وفي دفع هوان لم يوجبه عليك خالقك تعالى . وفي نصر مظلوم . وباذل نفسه فى غرض دنيا كبائع الياقوت بالحصا . لامروءة لمن لادين له . العاقل لايرى لنفسه ثمنا الا الجنة . لابليس في ذم الرياء حبالة . وذلك انه رب ممتنع من فعل خير خوف ان يظن به الرياء

﴿ باب عظيم من أبواب العقل والراحة ﴾

وهو طرح المبالاة بكلام الناس واستعمال المبالاة بكلام الخالق عز وجل بل هو العقل كله والراحة كلها . من قدر أنه يسلم من طعن الناس وعيبهم فهو مجنون . من حقق النظر وراض نفسه على السكون الى الحقائق . وان ألمها في أول

صدمة كان اغتباطه بذم الناس اياه أشد واكثر من اغتباطه بمدحهم اياه. لان مدحهم اياه ان كان بحق وبلغه مدحهم له أسرى ذلك فيه العجب فأفسد بذلك فضائله. وان كان بباطل فبلغه فسر فقد صار مسروراً بالكذب. وهذا نقص شديد. واما ذم الناس اياه فان بحق فبلغه فربما كان ذلك سبباً الى تجنبه ما يعاب عليه وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه الا ناقص. وان كان بباطل فصبر اكتسب فضلا زائداً بالحلم والصبر وكان مع ذلك غانماً لانه يأخذ حسنات من ذمه بالباطل فيحظى بها في دار الجزاء أحوج ما يكون الى النجاة باعمال لم يتعب فيها ولا تكلفها. وهذا حظ رفيع لا يزهد فيه الا مجنون. واما ان لم يبلغه مدح الناس اياه فكلامهم وسكوتهم سواء. وليس كذلك ذمهم اياه لانه غانم للاجر على كل حال بلغه ذمهم أو لم يبلغه. ولولا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الثناء الحسن: ذلك عاجل بشرى المؤمن لوجب ان يرغب العاقل في الذم بالباطل اكثر من رغبته في المدح بالحق ولكن اذ جاء هذا القول فانما تكون البشرى بالحق لا بالباطل فانما تجب البشرى بما في المدح لا بنفس المدح. ليس بين الفضائل

والرذائل والطاعات والمعاصي الا نفار النفس وأنسها فقط. فالسعيد من أنست نفسه بالفضائل والطاعات ونفرت من الرذائل والمعاصي. والشقي من أنست نفسه بالرذائل والمعاصي ونفرت من الفضائل والطاعات. وليس ها هنا الا صنع الله تعالى وحفظه. طالب الاخرة متشبه بالملائكة. وطالب الشر متشبه بالشياطين. وطالب الصوت والغلبة متشبه بالسباع وطالب اللذات متشبه بالبهائم. وطالب المال لعين المال لا لنفقته فى الواجبات والنوافل المحمودة أسقط وأذل من ان يكون له فى شيء من الحيوان شبه. ولكنه يشبه الغدرات فى الكهوف فى المواضع الوعرة لا ينتفع بها شيء من الحيوان. العاقل لا يغتبط بصفة يفوقه فيها سبع أو بهيمة أو جماد. وانما يغتبط بتقدمه في الفضيلة التي ابانه الله بها عن السباع والبهائم والجمادات وهي التمييز الذي يشارك فيه الملائكة. فمن سر بشجاعته التي يضعها في غير موضعها لله تعالى. فليعلم ان النمر اجرأ منه. وان الاسد والذئب والفيل أشجع منه. ومن سر بقوة جسمه فليعلم ان البغل والثور والفيل أقوى منه جسما. ومن سر بحمله الاثقال فليعلم ان الحمار أحمل منه.

ومن سر بسرعة عدوه. فليعلم ان الكلب والارنب أسرع عدواً منه ومن سر بحسن صوته فليعلم ان كثيراً من الطير أحسن صوتاً منه . وان أصوات المزامير ألذ وأطرب من صوته . فأي فخر وأى سرور في ما تكون فيه هذه البهائم متقدمة عليه . لكن من قوي تمييزه واتسع علمه وحسن عمله فليغتبط بذلك . فانه لا يتقدمه فى هذه الوجوه الا الملائكة وخيار الناس . قول الله تعالى (وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فان الجنة هى المأوي) جامع لكل فضيلة لان نهي النفس عن الهوى هو ردعها عن الطبع الغضبي وعن الطبع الشهوانى لان كليهما واقع تحت موجب الهوى فلم يبق الا استعمال النفس للنطق الموضوع فيها الذى به بانت عن البهائم والحشرات والسباع (قول) رسول الله صلى الله عليه وسلم للذي استوصاه لا تغضب وأمره عليه السلام ان يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه . جامعان لكل فضيلة . لان في نهيه عن الغضب ردع النفس ذات القوة الغضبية عن هواها وفى أمره عليه السلام ان يحب المرء لغيره ما يحب لنفسه ردع النفس عن القوة الشهوانية وجمع لازمه العدل الذي هو

فائدة النطق الموضوع فى النفس الجامدة

﴿ فصل في العلم ﴾

لو لم يكن من فضل العلم الا ان الجهال يهابونك ويحبونك وان العلماء يحبونك ويكرمونك . لكان ذلك سبباً الى وجوب طلبه . فكيف بسائر فضائله في الدنيا والآخرة . ولو لم يكن من نقص الجهل الا ان صاحبه يحسد العلماء ويغبطه نظراؤه من الجهال . لكان ذلك سبباً الى وجوب الفرار عنه . فكيف بسائر رذائله في الدنيا والآخرة . لو لم يكن من فائدة العلم والاشتغال به الا انه يقطع المشتغل به عن الوساوس المضنية ومطارح الآمال التي لا تفيد غير الهم وكفاية الافكار المؤلمة للنفس لكان ذلك أعظم داع اليه . فكيف وله من الفضائل ما يطول ذكره ومن أقلها ما ذكرنا مما عليه طالب العلم وفي مثله أتعب ضعفاء الملوك أنفسهم فتشاغلوا عما ذكرنا بالشطرنج والنرد والخمر والاغاني وركض الدواب في طلب الصيد وسائر الفضول التي تعود بالمضرة في الدنيا والآخرة . لو تدبر العالم في مرور ساعاته ماذا كفاه العلم من الذل بتسلط الجهال ومن الهم بمغيب الحقائق عنه ومن الغبطة بما قد بان له وجهه من

الامور الخفية عن غيره لزاد حمدا لله عز وجل وغبطة بما لديه من العلم ورغبة في المزيد منه . من شغل نفسه بادنى العلوم وترك اعلاها وهو قادر عليه كان كزارع الذرة في الارض التي يجود فيها البر وكغارس الشعراء (١) حيث يزكو النخل والزيتون نشرُ العلم عند من ليس من اهله مفسدٌ لهم كاطعامك العسل والحلواء من به احتراق وحمى وكتشميمك المسك لمن به صداع من احتدام الصفراء . الباخل بالعلم الوم من الباخل بالمال لان الباخل بالمال اشفق من فناء مابيده والباخل بالعلم بخل بما لايفنى على النفقة ولا يفارقه مع البذل . من مال بطبعه الى علم ما وان كان ادنى من غيره فلا يشغلها بسواه . فيكون كغارس النارجيل بالاندلس وكغارس الزيتون بالهند وكل ذلك لاينجب . اجل العلوم ماقربك من خالقك تعالى وما اعانك على الوصول الى رضاه . انظر في المال والصحة الى من دونك . وانظر في الدين والعلم والفضائل الى من فوقك . العلوم الغامضة كالدواء القوي يصلح الاجساد القوية ويهلك الاجساد الضعيفة . وكذلك

(١) الشعراء بوزن حمراء شجرة من الحمض ليس لها ورق ولها هدب تحرص عليها الابل حرصا شديداً تخرج عيدانا شداداً اه لسان

العلوم الغامضة تزيد العقل القوي جودة وتصفيه من كل آفة . وتهلك ذا العقل الضعيف . من الغوص على الجنون . ولو غاصه صاحبه على العقل . لكان احكم من الحسن البصري وافلاطون الأثيني وبزرجمهر الفارسي . وقف العقل عند انه لاينفع ان لم يؤيد بتوفيق في الدين او يسعد في الدنيا . وقف العلم عند الجهل بصفات الباري عز وجل . لا آفة على العلوم واهلها اضر من الدخلاء فيها وهم من غير اهلها فانهم يجهلون ويظنون انهم يعلمون ويفسدون ويظنون انهم يصلحون . من اراد خير الآخرة وحكمة الدنيا وعدل السيرة والاحتواء على محاسن الاخلاق كلها واستحقاق الفضائل باسرها فليقتد بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم وليستعمل اخلاقه وسيره ما امكنه . اعاننا الله على الاتساء به بمنه آمين . غاظني اهل الجهل مرتين من عمري (احداهما) بكلامهم فيما لايحسنونه ايام جهلي (والثانية) بسكوتهم عن الكلام بحضرتي فهم ابدا ساكتون عما ينفعهم ناطقون فيما يضرهم . وسرني اهل العلم مرتين من عمري (احداهما) بتعليمي ايام جهلي (والثانية بمذاكرتي ايام علمي من فضل العلم والزهد في الدنيا انهما لايؤتيهما الله عز وجل

الا اهلها ومستحقها . ومن نقص احوال الدنيا من المال والصوت ان اكثرما يقعان في غير اهلها وفيمن لايستحقها . من طلب الفضائل لم يساير الا اهلها ولم يرافق في تلك الطريق الا اكرم صديق . اهل المواساة والبر والصدق وكرم العشيرة والصبر والوفاء والامانة والحلم وصفاء الضمائر وصحة المودة ومن طلب الجاه والمال واللذات لم يساير الا امثال الكلاب الكلبة والثعالب الخلبة ولم يرافق في تلك الطريق الا كل عدو(١) المعتقد خبيث الطبيعة . منفعة العلم في استعمال الفضائل عظيمة وهو انه يعلم حسن الفضائل فيأتيها ولو في الندرة . ويعلم قبح الرذائل فيجتنبها ولو في الندرة . ويستمع الثناء الحسن فيرغب في مثله . والثناء الردىء فينفر منه . فعلى هذه المقدمات وجب ان يكون للعلم حصة في كل فضيلة . وللجهل حصة في كل رذيلة . ولا يأتي الفضائل من لم يتعلم الا صافي الطبع جدا فاضل التركيب . وهذه منزلة خص بها النبيون عليهم الصلاة والسلام لان الله علمهم الخير كله دون ان يتعلموه من الناس

(١) كذا الاصل ولعل الصواب سيء المعتقد الخ



﴿ فصل في الاخلاق والسير ﴾

احرص على ان توصف بسلامة الجانب . وتحفظ من أن توصف بالدهاء . فيكثر المتحفظون منك حتي ربما أضر ذلك بك وربما قتلك . وطن نفسك على ما تكره يقل همك اذا اتاك ولم تستضر بتوطينك أولا . ويعظم سرورك ويتضاعف اذا أتاك ما تحب مما لم تكن قدرته . اذا تكاثرت الهموم سقطت كلها . الغادر يفي بالمحدود . والوفي يغدر بالمحدود . والسعيد كل السعيد في دنياه من لم يضطره الزمان الى اختبار الاخوان . لا تفكر فيمن يؤذيك فانك ان كنت مقبلا فهو هالك وسعدك يكفيك . وان كنت مدبراً فكل أحد يؤذيك طوبى لمن علم من عيوب نفسه اكثر مما يعلم الناس منها . الصبر على الجفاء ينقسم ثلاثة أقسام : فصبر عمن يقدر عليك ولا تقدر عليه . وصبر عمن تقدر عليه ولا يقدر عليك . وصبر عمن لا تقدر عليه ولا يقدر عليك . فالاول ذل ومهانة وليس من الفضائل والرأي لمن خشي ما هو أشد مما يصبر عليه المتاركة والمباعدة . والثاني فضل وبر وهو الحلم على الحقيقة وهو الذي يوصف به الفضلاء . والثالث : ينقسم

قسمين اما ان يكون الجفاء ممن لم يقع منه الا علي سبيل الغلط ويعلم قبح ما أتى به ويندم عليه. فالصبر عليه أفضل وفرض هو حلم على الحقيقة. وأما من كان لا يدرى مقدار نفسه ويظن ان لها حقاً يستطيل به فلا يندم على ما سلف منه. فالصبر عليه ذل للصابر وافساد للمصبور عليه. لانه يزيد استشراء والمقارضة له سخف والصواب أعلامه بانه كان ممكناً ان ينتصر منه وانه انما ترك ذلك استرذالا له فقط وصيانة عن مراجعته ولا يزاد على ذلك. واما جواب السفلة فليس جوابه الا النكال وحده. من جالس الناس لم يعدم هما يؤلم نفسه وانما يندم عليه فى معاده وغيظاً ينضج كبده وذلا ينكس همته. فما الظن بعد بمن خالطهم وداخلهم. والعز الراحة والسرور والسلامة في الانفراد عنهم ولكن اجعلهم كالنار تدفأ بها ولا تخالطها. لا تحقر شيئاً من عمل غد لان تخففه(١)

(١) قوله لاتحقر شيئا الخ هكذا في الاصل ولا معنى لهذه العبارة على هذه الصفة والظاهر انه سقط منها شيء مع تحريف في الباقي منها وصوابها والله أعلم هكذا (لاتؤخر عمل اليوم الى غد الخ وكذا قوله و لاتحقر شيئا مما الخ صوابه ولا تؤخر شيئا الخ تأمل

بان تعجله اليوم. فان من قليل الاعمال يجتمع كثيرها وربما اعجز امرها فبطل الكل. ولا تحقر شيئاً مما ترجو به تثقيل ميزانك يوم البعث ان تعجله الآن وان قل فانه يحط عنك كثيراً لو اجتمع لقذف بك في النار. الوجع والفقر والنكبة والخوف لا يحس اذاها الا من كان فيها ولا يعلمه من كان خارجا عنها. وفساد الرأي والعار والاثم لا يعلم قبحها الا من كان خارجا عنها وليس يراه من كان داخلا فيها. الأمن والصحة والغنى لا يعرف حقها الا من كان خارجا عنها. وليس يعرف حقها من كان فيها. وجودة الرأي والفضائل وعمل الآخرة لا يعرف فضلها الا من كان من اهلها ولا يعرفه من لم يكن منها. اول من يزهد في الغادر من غدر له الغادر. واول من يمقت شاهد الزور من شهد له به. واول من تهون الزانية في عينه الذي يزني بها. مارأينا شيأ فسد فعاد الى صحة الا بعد اللتى فكيف بدماغ يتوالى عليه فساد السكر كل ليلة. وان عقلا زين لصاحبه تعجيل افساده كل ليلة لعقل ينبغي ان يتهم. قد ينحس العاقل بتدبيره ولا يجوز ان يسعد الاحمق بتدبيره. لا شيء اضر على السلطان من كثرة المتفرغين حواليه. فالحازم

يشغلهم بما لا يظلمهم فيه فان لم يفعل شغلوه بما يظلمونه فيه . مقرب اعدائه قاتل نفسه . التهويل بلزوم زي ما والا كفهرار وقلة الانبساط ستار جعلها الجهال الذين مكنتهم الدنيا امام جهلهم . ثق بالمتدين وان كان على غير دينك . ولا تثق بالمستخف وان اظهر انه على دينك . من استخف بحرمات الله تعالى فلا تامنه على شيء تشفق عليه . وجدت المشاركين بازواجهم اكثر من المشاركين باموالهم . وعلة ذلك طبيعة في البشر . انما تأنس النفس بالنفس . فاما الجسد فمستثقل مبروم به . ودليل ذلك استعجال المرء بدفن حبيبه اذا فارقته نفسه واسفه لذهاب النفس وان كانت الجثة حاضرة بين يديه . لم أر لابليس اصيد من كلمتين القاهما على السنة دعاته (احداهما) اعتذار من اساء بان فلانا أساء قبله (والثانية) استسهال الانسان ان يسيء اليوم لانه قد اساء أمس . بذل الواجبات فرض . وبذل مافضل عن القوت جود . والايثار على النفس من القوت بما لاتهلك على عدمه فضل . ومنع الواجبات حرام . ومنع مافضل عن القوت بخل وشح . والمنع من الايثار ببعض القوت جشع . ومنع النفس او الاهل القوت او بعضه نتن

ورذالة ومعصية . والسخاء بما ظلمت فيه او اخذته بغير حقه ظلم مكرر . والذم جزاء ذلك لا الحمد لأنك انما تبذل مال غيرك على الحقيقة لا مالك . واعطاء الناس حقوقهم مما عندك ليس جوداً ولكنه حق . حد الشجاعة بذل النفس للموت عن الدين او الحريم او عن الجار المضطهد وعن المستجير المظلوم وعن الهضيمة ظلماً في المال والعرض وسائر سبيل الحق سواء قل من يعارض او كثر . والصبر عما ذكرنا جبن وخور . وبذلها في عرض الدنيا تهور وحمق . واحمق من ذلك من بذلها في المنع من الحقوق والواجبات قبلك اوقبل غيرك واحمق من هؤلاء كلهم قوم شاهدتهم لا يدرون فيما يبذلون انفسهم فتارة يقاتلون زيدا عن عمرو وتارة يقاتلون عمرا عن زيد ولعل ذلك يكون في يوم واحد فيتعرضون للمهالك بلا معنى فينقلبون الى النار او يفرون الى العار . وقد انذر بهؤلاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله : يأتي على الناس زمان لا يدرى القاتل فيم قتل ولا المقتول فيم قُتل . حد العفة ان تغض بصرك وجميع جوارحك عن الاجسام التي لا تحل لك فما عدا هذا فهو عهر . ومانقص حتى يمسك عما احل الله تعالى فهو ضعف وعجز . حد العدل

ان تعطي من نفسك الواجب وتأخذه . وحد الجور ان تأخذه ولا تعطيه . وحد الكرم ان تعطي من نفسك الحق طائعاً وتتجافى عن حقك لغيرك قادرا . فالفضل أعم والجود اخص اذ الحلم فضل وليس جودا والفضل فرض زدت عليه نافلة . اهمال ساعة يفسد رياضة سنة . خطأ الواحد خير في تدبير الامور من صواب الجماعة التي لايجمعها واحد . لان خطأ الواحد في ذلك يستدرك وصواب الجماعة يضري على استدامة الأهمال وفي ذلك الهلاك . سوء الظن يعده قوم عيبا على الاطلاق وليس كذلك الا اذا أدى صاحبه الى مالا يحل في الديانة أو الى مايقبح في المعاملة والا فهو حزم والحزم فضيلة . عيب بعضهم باتلاف ماله فقال . انى لا اضيع منه الا ما كان في حفظه نقص ديني او إخلاق عرضي . او إتعاب نفسي . فانى أرى الذي احفظ من هذه الثلاثة وان قل اجلّ في العوض مما يضيع من مالي ولو انه كل ما ذرّت (١) عليه الشمس . أفضل نعم الله على العبد ان يطبعه على العدل وحبه وعلى الحق وإيثاره . من عيب حب الذكر انه يحبط

(١) ذرت أى طلعت



الاعمال اذا أحب عاملها ان يذكر بها وكاد يكون شركا لانه يعمل لغير الله تعالى وهو يطمس الفضائل لان صاحبه لا يكاد يفعل الخير حباً للخير لكن ليذكر به . ابلغ في ذمك من مدحك بما ليس فيك لانه نبه على نقصك . وابلغ في مدحك من ذمك بما ليس فيك لانه نبه على فضلك ولقد انتصر لك من نفسه بذلك وباستهدافه الى الانكار واللائمة . لو علم الناقص نقصه لكان كاملا . لايخلو مخلوق من عيب فالسعيد من قلت عيوبه ودُفنت . اكثر مايكون مالم تظن فالحزم هو التأهب لما يظن . فسبحان من رتب ذلك ليرى الانسان عجزه وافتقاره الى خالقه عز وجل .

﴿ فصل في الاخوان والصداقة والنصيحة ﴾

استبقاك من عاتبك ، وزهد فيك من استهان بشأنك العتاب للصديق كالسبك للسبيكة فاما تصفو واما تطير . من طوى من اخوانك سره الذي يعنيك دونك اخون لك ممن افشى سرك . لان من افشى سرك فانما خانك فقط ومن طوى سره دونك منهم فقد خانك واستخونك . لا ترغب فيمن يزهد فيك فتحصل على الخيبة والخزي . لا تزهد فيمن

يرغب فيك فانه باب من ابواب الظلم وترك مقارضة الاحسان وهذا قبيح . من امتحن بان يخالط الناس فلا يلق توهمه كله الى من صحب . ولا يبن منه الا على انه عدو مناصب . ولا يصبح كل غداة الا وهو مترقب من غدر اخوانه ، وسوء معاملتهم مثل مايترقب من العدو المكاشف . فان سلم من ذلك فلله الحمد . وان كانت الأخرى ألفى متأهباً ولم يمتهما . ولا يستعمل مع ذلك سوء المعاملة فيلحق بذوي الشرارة من الناس واهل الخب منهم . ولكن هاهنا طريق وعرة المسلك شاقة المتكلف يحتاج سالكها الى ان يكون اهدى من القطا واحذر من العقعق حتى يفارق الناس راحلا الى ربه تعالى وهي طريق الفوز في الدين والدنيا وهي ان تكتم سر كل من دونك وان لا تفشى الى احد من اخوانك ولا من غيرهم ما يمكنك طيه بوجه ما من الوجوه وان كان اخص الناس بك . وان تفي لجميع من إئتمنك . ولا تأتمن احدا على شيء من أمرك تشفق عليه الا لضرورة لابد منها فارتد حينئذ واجتهد وعلى الله الكفاية . وابذل فضل مالك وجاهك لمن سألك اولم يسألك ولكل من احتاج اليك وامكنك نفعه وان لم يعمدك بالرغبة

ولا تشعر نفسك انتظار مقارضة علي ذلك من غير ربك عز وجل . ولا تبن الا على ان أول من احسنت اليه اول مضر بك وساع عليك . فان ذوي التراكيب الخبيثة يبغضون لشدة الحسد كل من احسن اليهم اذا رأوه في أعلى من احوالهم . وعامل كل احد في الانس احسن معاملة واضمر السلو عنه . ان فلت ببعض الاوقات التي تأتى مع مرور الايام والليالي تعش سالماً مستريحاً . لا تنصح على شرط القبول . ولا تشفع على شرط الاجابة . ولا تهب على شرط الاثابة . لكن على سبيل استعمال الفضل وتأدية ماعليك من النصيحة والشفاعة وبذل المعروف . حد الصداقة الذي يدور على طرفي محدوده هو : إن يكون المرء يسوءه ما ساء الآخر ويسره ما سره . فما سفل عن هذا فليس صديقاً . ومن حمل هذه الصفة فهو صديق فيما نصح فيه . وكل ناصح صديق . وليس كل صديق ناصحا . وحد النصيحة هو : ان يسوء المرء ماضر الآخر ساء ذلك الآخر ام سره . وان يسره مانفعه سر الآخر ام ساءه . فهذا شرط في النصيحة زائد على شروط الصداقة . واقصى غايات الصداقة التى لامزيد عليها من شاركات

بنفسه وبماله لغير علة توجب ذلك وآثرك على من سواك .
ليس شيء من الفضائل اشبه بالرذائل من الاستكثار من الاخوان والاصدقاء فان ذلك فضيلة تامة متركبة لانهم لا يكتسبون الا بالحلم والجود والصبر والوفاء والاستضلاع والمشاركة والعفة وحسن الدفاع وتعلم العلم وبكل حالة محمودة ولسنا نعني الاتباع ايام الخدمة لانحرافهم عند انحراف الدنيا والمصادقين لبعض الاطماع . ولا المتنادمين على الخمر والمجتمعين على المعاصى والقبائح ونيل اعراض الناس والفضول وما لا فائدة فيه فليس هؤلاء اصدقاء لنيل بعضهم من بعض وانحرافهم عند فقد تلك الرذائل التي جمعتهم . وانما نعنى اخوان الصفاء لغير معنى الا لله عز وجل . واذا حصلت عيوب الاستكثار منهم وما يلزمك من الحق لهم عند نكبة تعرض اما بموت او بغرة او فراق او غدر من يغدر منهم كان السرور بهم لا يفي بالحزن الممض (١) من اجلهم . وليس في الرذائل اشبه بالفضائل من محبة المدح فانه في الوجه سخف ممن يرضى به

(١) أمضه الجرح اوجعه ومضه لغة فيه ومضه الشى مضاً ومضيضاً . بلغ من قلبه الحزن به كأمضاه

الا انه قد ينتفع به في الاقصار عن الشر والتزيد من الخير وفى ان يرغب في ذلك الخلق الممدوح من سمعه . بعض انواع النصيحة يشكل امره من النميمة لان من سمع انسانا يذم آخر ظالما له او يكيده فكتم ذلك عن المقول فيه والمكيد كان الكاتم لذلك ظالماً مذموماً ثم ان اعلمه بذلك كان قد ولد على الذام والكائد مالم يبلغا استحقاقه بعد من الاذى فيكون ظالما له . وليس من الحق ان يقتص من الظالم باكثر من قدر ظلمه فالعاقل في مثل هذا يحفظ المقول فيه من القائل دون ان يبلغه ماقال لئلا يقع في الاسترسال اليه فيهلك . واما في الكيد فيحفظه من الوجه الذي يكاد منه بالطف مايقدر في الكتمان على الكائد وابلغ مايقدر في تحفيظ (١) الكيد ولا يزد على هذا شيأ . واما النميمة فهى التبليغ لما سمع مما لاضرر فيه على المبلغ اليه . النصيحة مرتان فاولاً فرض وديانة والثانية تنبيه وتذكير والثالثة توبيخ وتقريع وليس وراء ذلك الا التركل واللطام وربما اشد من ذلك من البغي والاذى اللهم الا في معانى الديانة

(١) قوله في تحفيظ هكذا فى الاصل ولعل الصواب تخفيف او تحفيض فتأمل اه

فواجب على المرء ترداد النصح رضى المنصوح او سخط ، تأذى الناصح بذلك اولم يتأذ . اذا نصحت فانصح سرا لا جهرا أو بتعريض لا تصريح الا ان لا يفهم المنصوح تعريضك فلا بد من التصريح . ولا تنصح على شرط القبول منك . فان تعديت هذه الوجوه فانت ظالم لا ناصح وطالب طاعة وملك . لا مؤد حق ديانة واخوة . وليس هذا حكم العقل ولا حكم الصداقة ولكن حكم الامير مع رعيته والسيد مع عبيده . لا تكلف صديقك الامثل ما تبذل له من نفسك . فان طلبت اكثر فانت ظالم . ولا تكسب الا على شرط الفقد ولا تتول الا على شرط العزل . والا فانت مضر بنفسك خبيث السيرة ، مسامحة اهل الاستئثار والاستنمام والتغافل لهم ليس مروءة ولا فضيلة . بل مهانة وضعف وتضرية (١) لهم على التمادي على ذلك الخلق المذموم وتغبيط لهم به وعون لهم على فعل ذلك السوء . وانما تكون المسامحة مروءة لاهل الانصاف المبادرين الى المسامحة والايثار فهؤلاء على اهل الفضل ان

(١) قوله وتضرية اي أغراء من ضرى الكلب بالكسر ضراوة اي تعود واضراصاحبه عوده واضرد به اي اغراه وضراه ايضا تضرية اه

يعاملوهم بمثل ذلك لا سيما ان كانت حاجتهم امس وضرورتهم اشد (فان قال قائل) فاذا كان كلامك هذا موجبا لاسقاط المسامحة والتغافل للاخوان فيه استوى الصديق والعدو والاجنبي في المعاملة فهذا فساد ظاهر (فنقول) وبالله التوفيق كلاما يحض الا على المسامحة والتغافل والايثار ليس لاهل التغنم لكن للصديق حقا فان اردت معرفة وجه العمل في هذا والوقوف على نهج الحق فان القصة التي توجب الاثرة من المرء على نفسه صديقه ينبغي لكل واحد من الصديقين ان يتأمل ذلك الامر فايهما كان امس حاجة فيه واظهر ضرورة لديه فحكم الصداقة والمروءة تقتضى للآخر وتوجب عليه ان يؤثر على نفسه في ذلك فان لم يفعل فهو متغنم مستكثر لا ينبغي ان يسامح البتة اذ ليس صديقا ولا اخا فاما اذا استوت حاجتهما واتفقت ضرورتها فحق الصداقة هاهنا ان يسارع كل واحد منها الى الاثرة على نفسه فان فعلا ذلك فهما صديقان وان بدر احدهما الى ذلك ولم يبادر الآخر اليه فان كانت عادته هذه فليس صديقا ولا ينبغى ان يعامل معاملة الصداقة وان كان قد يبادر هو ايضا الى مثل ذلك في قصة أخرى فهما

صديقان. من اردت قضاء حاجته بعد ان سألك اياها او اردت
ابتداءه بقضائها فلا تعمل له الا مايريد هو لا ماتريد انت والا
فامسك فان تعديت هذا كنت مسيئاً لا محسنا ومستحقا للوم
منه ومن غيره لا للشكر ومقتضياً للعداوة لا للصداقة. لا تنقل
الى صديقك مايؤلم نفسه ولا ينتفع بمعرفته فهذا فعل
الأرذال. ولا تكتمه ما يستضر بجهله فهذا فعل أهل الشر.
ولا يسرك ان تمدح بما ليس فيك بل ليعظم غمك بذلك لانه
نقصك ينبه الناس عليه ويسمعهم اياه وسخرية منك وهزؤ
بك ولا يرضى بهذا الا أحمق ضعيف العقل. ولا بأس ان
ذممت بما ليس فيك بل أفرح به فانه فضلك ينبه الناس عليه.
ولكن أفرح اذا كان فيك ماتستحق به المدح وسواء مدحت
به أولم تمدح. واحزن اذا كان فيك ما تستحق به الذم فسواء
ذممت به أولم تذم. من سمع قائلا يقول في إمرأة صديقه قول
سوء فلا يخبره بذلك أصلا لاسيما اذا كان القائل عيابة وقاعافي
الناس سليط اللسان أو دافع مغرم عن نفسه يريد ان يكثر أمثاله
في الناس وهذا كثيراً موجود. وبالجملة فلا يحدث الانسان
الا بالحق: وقول هذا القائل لايدرى أحق هو أم باطل الا

انه في الديانة عظيم. فان سمع القول مستفيضاً من جماعة وعلم
ان أصل ذلك القول شائع وليس راجعاً الى قول انسان واحد
أو اطلع على حقيقته الا انه لايقدر يوقف صديقه على ماوقف
عليه هو فليخبره بذلك بينه وبينه فى رفق وليقل له: النساء
كثير او حصن منزلك وثقف أهلك أو اجتنب أمرا كذا
وتحفظ من وجه كذا. فان قبل المنصوح وتحرز لحظ نفسه
اصاب. وان رآه لايتحفظ ولا يبالى أمسك ولم يعاوده بكلمة
وتمادى على صداقته اياه فليس في ان لا يصدقه في قوله مايوجب
قطيعته. فان إطلع على حقيقة وقدر أن يوقف صديقه على مثل
ماوقف هو عليه من الحقيقة ففرض عليه ان يخبره بذلك وان
يوقفه على الجلية. فان غير فذلك وان رآه لا يغير اجتنب صحبته
ولا خير فيه ولا بغية. ودخول رجل متستر فى منزل المرء
دليل سوء لايحتاج الى غيره. ودخول المرأة في منزل رجل
على سبيل التستر مثل ذلك أيضاً. وطلب دلايل أكثر من
ذلك سخف. وواجب ان يجتنب مثل هذه المرأة وفراقها
على كل حال. وممسكها لا يبعد عن الديانة. الناس في بعض
أخلاقهم على تسع مراتب. فطائفة تمدح في الوجه وتذم في

المغيب وهذه صفة أهل النفاق والعيابين وهذا خلق فاش في الناس غالب عليهم : وطائفة تذم في المشهد والمغيب وهذه صفة اهل السلاطة والوقاحة من العيابين وطائفة تمدح في الوجه والغيب وهذه صفة أهل الملق والطمع : وطائفة تذم في المشهد وتمدح في المغيب وهذه صفة أهل السخف والنواكة . وأما أهل الفضل فيمسكون عن المدح والذم في المشاهدة ويثنون بالخير في المغيب أو يمسكون عن الذم . وأما العيابون البرآء من النفاق والقحة فيمسكون عن المدح وعن الذم في المشهد والمغيب . ومن كل من أهل هذه الصفات قد شاهدنا وبلونا . اذا نصحت ففي الخلاء وبكلام لين ولا تسند سب من تحدثه الى غيرك فتكون نماما فان خشنت كلامك في النصيحة فذلك اغراء وتنفير . وقد قال تعالى : فقولا له قولاً ليناً . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تنفر . وان نصحت بشرط القبول منك فانت ظالم ولعلك تخطىء في وجه نصحك فتكون مطالبا بقبول خطئك وبترك الصواب . لكل شيء فائدة ولقد انتفعت بمحك اهل الجهل منفعة عظيمة وهي انه توقد طبعي واحتدم خاطري وحمي فكري وتهيج نشاطي فكان ذلك سبباً الى

تواليف عظيمة النفع ولولا استثارتهم ساكني واقتداحهم كامني ما انبعثت لتلك التواليف . لا تصاهر الى صديق ولا تبايعه فما رأينا هذين العملين الا سبباً للقطيعة . وان ظن اهل الجهل ان فيهما تأكيدا للصلة فليس كذلك . لان هذين العقدين داعيان كل واحد الى طلب حظ نفسه . والمؤثرون على انفسهم قليل جدا . فاذا اجتمع طلب كل امرىء حظ نفسه وقعت المنازعة ومع وقوعها فساد المروءة . واسلم المصاهرة مغبة مصاهرة الاهلين بعضهم بعضا لان القرابة تقتضي العدل وان كرهوه لانهم مضطرون الى ما لا انفكاك لهم منه من الاجتماع في النسب الذي توجب الطبيعة لكل احد الذب عنه والحماية له

﴿ فصل في انواع المحبة ﴾

وقد سئلت عن تحقيق القول فيها وفي انواعها . المحبة كلها جنس واحد ورسمها انها الرغبة في المحبوب وكراهة منافرته والرغبة في المقارضة منه بالمحبة . وانما قدر الناس انها تختلف من اجل اختلاف الاغراض فيها . وانما اختلفت الاغراض من اجل اختلاف الاطماع وتزايدها وانحسامها

فتكون المحبة لله عز وجل وفيه . وللاتفاق على بعض المطالب وللأب والابن والقرابة والصديق وللسلطان ولذات الفراش وللمحسن والمأمول وللمعشوق . فهذا كله جنس واحد اختلفت انواعه كما وصفت لك على قدر الطمع فيما ينال فلذلك اختلفت وجوه المحبة . وقد رأينا من مات اسفاً على ولده كما يموت العاشق اسفاً على معشوقه . وبلغنا عمن شهق من خوف الله تعالى ومحبته فمات . وتجد المرء يغار على سلطانه وعلى صديقه كما يغار على ذات فراشه وكما يغار العاشق على معشوقه فأدنى اطماع المحبة ممن تحب الحظوة منه والرفعة لديه والزلفة عنده اذا لم تطمع في اكثر . وهذه غاية اطماع المحبين لله ثم يزيد الطمع في المجالسة ثم في المحادثة والموازرة . وهذه اطماع المرء في سلطانه وصديقه وذوي رحمه . واقصى اطماع المحب ممن يحب المخالطة بالاعضاء اذا رجا ذلك ولذلك نجد المحب المفرط المحبة في ذات فراشه يرغب في جماعها على هيآت شتى في اماكن مختلفة ليستكثر من الاتصال . ويدخل في هذا الباب الملامسة بالجسد والتقبيل . وقد يقع بعض هذا الطمع في الأب وفي ولده فيتعدى الى التقبيل والتعنيق . وكل ماذكرنا

انما هو على قدر الطمع . فاذا انحسم الطمع عن شيء ما ببعض الأسباب الموجبة له مالت النفس الى ما تطمع فيه . وتجد المقر بالرؤية شديد الحنين اليها عظيم التروح نحوها لايقنع بدرجة نحوها لانه يطمع فيها . وتجد المنكر لها لا تحن نفسه الى ذلك ولا يتمناه اصلا لانه لايطمع فيه وتجده يقتصر على الرضا والحلول في دار الكرامة فقط لانه لا تطمع نفسه في اكثر . ونجد المستحل لنكاح القرايب لايقنع منهن بما يقنع المحرم لذلك ولا تقف محبته حيث تقف محبة من لا يطمع في ذلك . فتجد من يستحل نكاح ابنته وابنة اخيه كالمجوس واليهود لايقف من محبتها حيث تقف محبة المسلم بل تجدهما يتعشقان الابنة وابنة الاخ كتعشق المسلم فيمن يطمع في مخالطته بالجماع . ولا تجد مسلما يبلغ ذلك فيهما ولو انهما اجمل من الشمس وكان هو اعهر الناس واغزلهم فان وجد ذلك في الندرة فلا تجده الا من فاسد الدين قد زال عنه ذلك الرادع فانفسح الامل وانفتح له باب الطمع . ولا يأمن المسلم ان تفرط محبته لابنة عمه حتى يصير عشقاً وحتى تتجاوز محبته لها محبته لابنته وابنة اخيه وان كانتا اجمل منها لانه يطمع من

الوصول الى ابنة عمه حيث لا يطمع من الوصول الى ابنته وابنة اخيه . وتجد النصراني قد امن ذلك من نفسه من ابنة عمه لانه لا يطمع منها في ذلك . ولا يأمن ذلك من نفسه في اخته من الرضاعة لانه طامع بها في شرعته . فلاح بهذا عيانا ماذكرنا من ان المحبة كلها جنس واحد لكنها تختلف انواعها على قدر اختلاف الاغراض فيها والا فطباع البشر كلهم واحدة الا ان للعادة والاعتقاد الدياني تأثيراً ظاهراً ولسنا نقول : ان الطمع له تأثير في هذا الفن وحده . لكنا نقول . ان الطمع سبب الى كل هم وحتى في الاموال والاحوال . فانا نجد الانسان يموت جاره وخاله وصديقه وابن عمته وعمه لام وابن اخيه لام وجده أبو امه وابن بنته فاذ لا مطمع له في ماله ارتفع عنه الهم بفوته عن يده وان جل خطره وعظم مقداره فلا سبيل الى ان يمر الاهتمام بشيء منه بباله واذا مات له عصبة على بعد أو مولى على بعد حدث له الطمع في ماله وحدث له من الهم والاسف والغيظ والفكرة بفوت اليسير منه عن يده أمر عظيم . وهكذا في الاحوال فتجد الانسان من اهل الطبقة المتأخرة لا يهتم لانفاذ غيره امور بلد دون أمره ولا لتقريب

غيره او بعده حتى اذا حدث مطمع في هذه المرتبة حدث له من الهم والفكرة والغيظ أمر ربما قاده الى تلف نفسه وتلف دنياه وأخراه . فالطمع اذاً لكل ذل ولكل هم وهو خلق سوء ذميم . وضده نزاهة النفس . وهذه صفة فاضلة مركبة من النجدة والجود والعدل والفهم لانه رأى قلة الفائدة في استعمال ضدها فاستعملها وكانت فيه نجدة انتجت له عزة نفسه فتنزه وكانت فيه طبيعة سخاوة نفس فلم يهتم لما فاته وكانت فيه طبيعة عدل حببت اليه القنوع وقلة الطمع . فاذن نزاهة النفس متركبة من هذه الصفات . فالطمع الذي هو ضدها متركب من الصفات المضادة لهذه الاربع صفات وهي الجبن والشح والجور والجهل . والرغبة طمع مستوفي متزايد مستعمل ولولا الطمع ماذل أحد لاحد . واخبرني أبو بكر بن أبي الفياض قال كتب عثمان ابن محامس على باب داره بأسحه يا عثمان لا تطمع

﴿ فصل من هذا الباب ﴾

من امتحن بقرب من يكره . كمن امتحن بصد من يحب . ولا فرق إذا دعا المحب في السلو فاجابته مضمونة وهى دعوة

مجابة . اقتنع بمن عندك يقنع بك من عندك . السعيد في المحبة هو من ابتلى بمن يقدر ان يلقى عليه قفله ولا تلحقه في مواصلته تبعة من الله عز وجل ولا ملامة من الناس . وصلاح ذلك ان يتوافقا في المحبة . وتحريره ان يكونا خاليين من الملل فانه خلق سوء منغص وتمامه نوم الايام عنهما مدة انتفاع بعضهما ببعض واني بذلك الا في الجنة . وأما ضمانه بيقين فليس الا فيها فهي دار القرار والا فلو حصل ذلك كله في الدنيا لم تؤمن الفجائع ولقطع العمر دون استيفاء اللذة . اذا ارتفعت الغيرة فايقن بارتفاع المحبة . الغيرة خلق فاضل متركب من النجدة والعدل . لان من عدل كره ان يتعدى الى حرمة غيره وان يتعدى غيره الى حرمته . ومن كانت النجدة له طبعاً حدثت فيه عزة . ومن العزة تحدث الانفة من الاهتضام . أخبرني بعض من صحبناه في الدهر عن نفسه انه ماعرف الغيرة قط حتى ابتلى بالمحبة فغار وكان هـذا المخبر فاسد الطبع خبيث التركيب الا انه من اهل الفهم والجود . درج المحبة خمسة أولها الاستحسان وهو ان يتمثل الناظر صورة المنظور اليـه حسنه او يستحسن اخلاقه وهذا يدخل في باب التصادق .

ثم الاعجاب وهو رغبة الناظر في المنظور اليـه في قربه . ثم الالفة وهي الوحشة اليه اذا غاب . ثم الـكلف وهو غلبة شغل البال به وهذا النوع يسمى في الغزل العشق . ثم الشغف وهو امتناع النوم والاكل والشرب الا اليسير من ذلك . وربما أدي ذلك الي المرض او الى التوسوس أو الى الموت . وليس وراء هذا منزلة في تناهي المحبة أصلا

﴿ فصل ﴾

كنا نظن ان العشق في ذوات الحركة والحدة من النساء اكثر فوجدنا الامر بخلاف ذلك وهو في الساكنة الحركات اكثر مالم يكن ذلك السكون بلها

﴿ فصل ﴾

في انواع صباحة الصور وقد سئلت عن تحقيق الكلام فيها (فقلت) الحلاوة دقة المحاسن ولطف الحركات وخفة الاشارات وقبول النفس لاعراض الصور وان لم تكن ثم صفات ظاهرة القوام جمال كل صفة على وحدتها ورب جميل الصفات على انفراده كل صفة منها بارد الطلعة غير مليح ولا حسن ولا رائع ولا حلو الروعة بهاء الاعضاء الظاهرة . وهي ايضاً الفراهة .

والعتق الحسن . وهو شيء ليس له في اللغة اسم يعبر به عنه ولكنه محسوس في النفوس باتفاق كل من رآه . وهو برد مكسو على الوجه واشراق يستميل القلوب نحوه فتجتمع الآراء على استحسانه وان لم تكن هناك صفات جميلة فكل من رآه راقه واستحسنه وقبله حتى اذا تأملت الصفات افراداً لم تر طائلا . وكأنه شيء في نفس المرئ يجده نفس الرائي . وهذا اجل مراتب الصباحة . ثم تختلف الاهواء بعد هذا فمن مفضل الروعة ومن مفضل للحلاوة . وما وجدنا أحداً قط يفضل القوام المنفرد . الملاحة اجتماع شيء بشيء مما ذكرنا

﴿ فصل فيما يتعامل به الناس في الاخلاق ﴾

التلون المذموم هو . التنقل من زي متكلف لا معنى له الى زي آخر مثله في التكلف وفي انه لامعنى له ومن حال لامعنى لها الى حال لامعنى لها بلا سبب يوجب ذلك . فاما من استعمل من الزي ما امكنه مما به اليه حاجة وترك التزيد مما لايحتاج اليه فهذا عين من عيون العقل والحكمة كثير . وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو القدوة في كل خير والذي اثنى الله تعالى على خلقه والذي جمع الله تعالى فيه

اشتات الفضائل بتمامها وابعده عن كل نقص . يعود المريض مع اصحابه راجلا في اقصى المدينة بلا خف ولا نعل ولا قلنسوة ولا عمامة . ويلبس الشعر اذا حضره . ويلبس الوشي من الحبرات اذا حضره لا يتكلف . الا يحتاج اليه . ولا يترك مايحتاج اليه . يستغنى بما وجد عما لا يجد . ومرة يمشي حافياً راجلا . ومرة يلبس الخف ويركب البغلة الرائعة الشهباء . ومرة يركب الفرس . ومرة يركب الناقة . ومرة يركب حمارا ويردف عليه بعض اصحابه . ومرة يأكل التمر دون خبز والخبز يابسا . ومرة يأكل العناق (١) المشوية والبطيخ بالرطب والحلواء يأخذ القوت ويبذل الفضل ويترك مالا يحتاج اليه ولا يتكلف فوق مقدار الحاجة ولا يغضب لنفسه ولا يدع الغضب لربه عز وجل . الثبات الذي هو صحة العقد . والثبات الذي هو اللجاج يشتبهان اشتباهاً لا يفرق بينهما الا عارف بكيفية الاخلاق . والفرق بينهما ان اللجاج هو ما كان على الباطل أو ما فعله الفاعل نصراً لما نشب فيه وقد لاح له فساده او لم يلح له صوابه ولا فساده . وهذا مذموم . وضده الانصاف

---

(١) العناق كسحاب الانثى من أولاد المعز

واما الثبات الذي هو صحة العقد فانما يكون على الحق او على ما اعتقده المرء حقاً مالم يلح له باطله . وهذا محمود . وضده الاضطراب . وانما يلام بعض هذين لانه ضيع تدبر ماثبت عليه وترك البحث عما التزم أحق هو ام باطل . حد العقل استعمال الطاعات والفضائل وهذا الحد ينطوي فيه اجتناب المعاصي والرذائل وقد نص الله تعالى فى غير موضع من كتابه على ان من عصاه لايعقل (وقال) الله تعالى حاكياً عن قوم وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في اصحاب السعير . ثم قال تعالى مصدقا لهم فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لاصحاب السعير . وحد الحمق استعمال المعاصي والرذائل . واما التعدي وقذف الحجارة والتخليط في القول فانما هو جنون ومرار هائج . واما الحمق فهو ضد العقل وهما مابينا آنفاً ولا واسطة بين العقل والحمق الا السخف . وحد السخف هو العمل والقول بما لايحتاج اليه في دين ولا دنيا ولا حميد خلق مما ليس معصية ولا طاعة ولا عوناً عليهما ولا فضيلة ولا رذيلة مؤذية ولكنه من هذر القول وفضول العمل . فعلى قدر الاستكثار من هذين الامرين والتقلل منهما يستحق المرء اسم السخف . وقد يسخف المرء

في قصة ويعقل في أخرى ويحمق في ثالثة . وضد الجنون تمييز الاشياء ووجود القوة على التصرف في المعارف والصناعات وهذا الذى يسميه الاوائل النطق ولا واسطة بينهما . واما احكام أمر الدنيا والتودد الى الناس بما وافقهم وصلحت عليه حال المتودد من باطل او غيره أو عيب أو ماعداه والتحيل في إنماء المال وبعد الصوت وتمشية الجاه بكل ما امكن من معصية ورذيلة فليس عقلا . ولقد كان الذين صدقهم الله فى انهم لايعقلون واخبرنا بانهم لايعقلون سائسين لدنياهم مثمرين لاموالهم حافظين لرياستهم لكن هذا الخلق يسمى الدهاء وضده العقل والسلامة ، واما اذا كان السعي فيما ذكرنا بما فيه تصاون وانفة فهو يسمى الحزم ، وضده المنافي له التضييع واما الوفاء . ووضع الكلام موضعه والتوسط فى تدبير المعيشة ومسايرة الناس بالمسالمة فهذه الاخلاق تسمى الرزانة . وهي ضد السخف . الوفاء مركب من العدل والجود والنجدة . لان الوفى رأى من الجور ان لايعارض من وثق به أو من أحسن اليه بعدل فى ذلك . ورأى ان يسمح بعاجل يقتضيه له عدم الوفاء من الحظ فجاد في ذلك ، ورأى ان يتجلد لما يقع

من عاقبة الوفاء فشجع في ذلك (اصول) الفضائل اربعة عنها تتركب كل فضيلة وهى العدل والفهم والنجدة والجود (اصول) الرذائل كلها اربعة عنها تتركب كل رذيلة وهى اضداد الذي ذكرنا وهى : الجور والجهل والجبن والشح الامانة والعفة نوعان من انواع العدل والجود قال ابو محمد على بن احمد مما قلته فى الاخلاق

انما العقل اساس فوقه الاخلاق سور
فحلي العقل بالعلم والا فهو بور
جاهل الاشياء أعمى لا يرى كيف يدور
وتمام العلم بالعدل والا فهو زور
وزمام العدل بالجود والا فيجور
وملاك الجود بالنجدة والجبن غرور
عف ان كنت غيورا مازنى قط غيور
وكمال الكل بالتقوى وقول الحق نور
ذي اصول الفضل عنها حدثت بعد النذور

ومما قلته أيضاً

جميع اصول الفضائل عدل وفهم وجود وباس

فمن هذه ركبت غيرها فمن حازها فهو في الناس راس
كذا الراس فيه الامور التي باحساسها يكشف الالتباس

في النفس فضيلة تركبت من النجدة ، وكذلك الصبر . والحلم نوع مفرد من انواع النجدة . والقناعة فضيلة مركبة من الجود والعدل . الشره متولد عن الطمع . والطمع متولد عن الحسد . والحسد متولد عن الرغبة . والرغبة متولدة عن الجور والشح والجهل (الحرص) ويتولد من الحرص رذائل عظيمة منها الذل والسرقة والغصب والزنا والقتل والعشق والهم بالفقر والمسئلة لما بايدى الناس . وانما فرقنا بين الحرص والطمع لان الحرص هو . اظهار ما استكن في النفس من الطمع . (والمداراة) فضيلة متركبة من الحلم والصبر . الصدق مركب من العدل والنجدة . لاشيء اقبح من الكذب وما ظنك بعيب يكون الكفر نوعا من انواعه فكل كفر كذب فالكذب جنس الكفر نوع تحته . (الكذب) متولد من الجور والجبن والجهل . لان الجبن يولد مهانة النفس والكذاب مهين النفس بعيد عن عزتها المحمودة . رأيت الناس في كلامهم الذى هو فصل بينهم وبين الحمير والكلاب والحشرات

ينقسمون أقساما ثلاثة (احدها) من لا يبالى فيما انفق كلامه فيتكلم بكل ماسبق الى لسانه غير محقق نصر حق ولا انكار باطل وهذا هو الاغلب في الناس (والثاني) ان يتكلم ناصراً لما وقع في نفسه انه حق . ودافعاً لما توهم انه باطل . غير محقق لطلب الحقيقة لكن لجاجاً فيما التزم وهذا كثير . وهودون الاول (والثالث) واضع الكلام في موضعه وهذا اعز من الكبريت الاحمر لقدطالهم من غاظه الحق . اثنان عظمت راحتهما احدهما في غاية المدح ، والآخر في غاية الذم . وهما مطرح الدنيا ومطرح الحياء . من عجيب تدبير الله عز وجل للعالم ان كل شيء اشتدت الحاجة اليه كان ذلك أهون له . وتأمل ذلك في الماء فما فوقه وكل شيء اشتد الغني عنه كان ذلك اعز له . وتأمل ذلك فى الياقوت الاحمر فما دونه الناس فيمايعانون كالماشي في الفلاة كلما قطع ارضاً بدت له أرضون . وكلماقصد المرء سبباً حدثت له اسباب . صدق من قال ان العاقل فى الدنيا متعوب . وصدق من قال انه فيها مستريح . فاما تعبه فبما يرى من انتشار الباطل وغلبته دولته وبما يحال بينه من اظهار الحق . واما راحته فمن كل ما يهتم به سائر الناس من

فضول الدنيا . إياك وموافقة الجليس السيء ومساعدة اهل زمانك فيما يضرك في اخراك أو في دنياك وان قل فانك لا تستفيد بذلك الا الندامة حيث لا ينفعك الندم . ولن يحمدك امرؤ ساعدته بل يشمت بك . وأقل ذلك وهو المضمون انه لا يبالي سوء عاقبتك وفساد مغبتك . واياك ومخالفة الجليس ومعارضة أهل زمانك في ما لا يضرك في دنياك ولا في اخراك وان قل فانك تستفيد بذلك الاذى والمنافرة والعداوة وربما ادى ذلك الي المطالبة والضرر العظيم دون منفعة اصلا إن لم يكن بد من اغضاب الناس واغضاب الله عز وجل ولم يكن لك مندوحة عن منافرة الخلق اومنافرة الحق فأغضب الناس ونافرهم . ولا تغضب ربك ولا تنافر الحق . الائتساء بالنبي صلى الله عليه وسلم فى وعظه أهل الجهل والمعاصي والرذائل واجب . فمن وعظ بالجفا والاكفهرار فقد أخطأ وتعدى طريقه صلى الله عليه وسلم وصار في اكثر الامر مغريا الموعوظ بالتمادى على أمره لجاجاً وحرجاً ومغايظة للواعظ الجافي فيكون في وعظه سيأ لا محسناً . ومن وعظ ببشر وتبسم ولين كأنه مشير برأي ومخبر عن غير الموعوظ بما يستقبح من الموعوظ

فذلك المنع وانجع في الموعظة . فان لم ينتقل فلينتقل الى الوعظ بالتحشيم وفي الخلاء . فان لم يقبل ففي حضرة من يستحي منه الموعوظ . فهذا أدب الله في امره بالقول اللين . وكان صلى الله عليه وسلم لايواجه بالموعظة لكن يقول : مابال اقوام يفعلون كذا . وقد اثنى عليه الصلاة والسلام على الرفق . وامر بالتيسير . ونهى عن التنفير . وكان يتخول بالموعظة خوف الملل . (وقال) تعالى : ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك . (واما) الغلظة والشدة فانما تجب في حد من حدود الله تعالى فلا لين في ذلك للقادر على اقامة الحد خاصة . ومما ينجع في الوعظ ايضاً الثناء بحضرة المسيء على من فعل خلاف فعله . فهذا داعية الى عمل الخير وما اعلم لحب المدح فضلا الا هذا وحده . وهو ان يقتدي به من يسمع الثناء ولهذا نوجب ان نؤرخ الفضائل والرذائل لينفر سامعها عن القبيح المأثور عن غيره ويرغب في الحسن المنقول عمن تقدمه ويتعظ بما سلف . وتأملت كل مادون السماء وطالت فكرتي فوجدت كل شيء فيه من حي وغير حي طبعه ان قوى ان يقلع عن غيره من الانواع كيفياته ويلبسه صفاته فترى

الفاضل يود لو كان الناس فضلاء وترى كل من ذكر شيأ يحض عليه بقول أو فعل أمرا مدا وما وكل ذي مذهب يود لو كان الناس موافقين له وترى ذلك في الفياض اذا احال بعضها على بعض أحاله الى نوعيته وترى ذلك في تركيب الشجر وفي تغذي النبات والشجر والماء ورطوبة الارض وإحالتها ذلك الى نوعيتها فسبحان مخترع ذلك ومدبره لا اله الا هو (من عجيب) قدرة الله تعالى كثرة الخلق ثم لاترى احداً يشبه آخر شبهاً لا يكون بينهما فيه فرق وقد سألت من طال عمره وبلغ الثمانين عاماً هل رأى الصور في ماخلا مشبهة لهذه شبهاً واحدا . فقال لا بل لكل صورة فرقها وهكذا كل مافي العالم يعرف ذلك . من تدبر الآلات وجميع الاجسام المركبات وطال تكرر بصره عليها . فانه حينئذ يميز مابينها ويعرف بعضها من بعض بفروق فهذا تعرفها النفس ولا يقدر احد يعبر عنها بلسانه فسبحان العزيز الحكيم الذي لاتتناهى مقدوراته

﴿ فصل في مداواة ادواء الاخلاق الفاسدة ﴾

من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه . فان اعجب

بفضائله فليفتش مافيه من الاخلاق الدنيئة . فان خفيت عليه
عيوبه جملة حتى يظن انه لاعيب فيه فليعلم ان مصيبته الى الابد
وأنه أتم الناس نقصاً واعظمهم عيوبا وأضعفهم تمييزاً وأول ذلك
ان ضعيف العقل جاهل . ولا عيب اشد من هذين لان
العاقل هو من ميز عيوب نفسه فغالبها وسعى في قمعها .
والاحمق هو الذى يجهل عيوب نفسه اما لقلة علمه وتمييزه
وضعف فكرته . واما لانه يقدر ان عيوبه خصال وهذا أشد
عيوب الارض . وفى الناس كثير يفخرون بالزنا واللياط
والسرقة والظلم فيعجب بتأتى هذه النحوس له وبقوته على هذه
المخازي (واعلم) يقينا انه لايسلم إنسي من نقص حاشا الانبياء
صلوات الله عليهم فمن خفيت عليه عيوب نفسه فقد سقط
وصار من السخف والضعف والرذالة والخسة وضعف التمييز
والعقل وقلة الفهم بحيث لايتخلف عنه متخلف من الارذال
وبحيث ليس تحته منزلة من الدناءة فليتدارك نفسه بالبحث
عن عيوبه والاشتغال بذلك عن الاعجاب بها وعن عيوب غيره
التي لاتضره لافى الدنيا ولا في الآخرة . وما أدرى لسماع
عيوب الناس خصلة الا الاتعاظ بما يسمع المرء منها فيجتنبها

ويسعى في ازالة مافيه منها بحول الله تعالى وقوته (واما) النطق
بعيوب الناس فعيب كبير لايسوغ اصلا والواجب اجتنابه
الا فى نصيحة من يتوقع عليه الأذى بمداخلة المعيب أو على
سبيل تبكيت المعجب فقط في وجهه لاخلف ظهره ثم يقول
للمعجب ارجع الى نفسك فاذا ميزت عيوبها فقد داويت
عجبك ولا تمثل بين نفسك وبين من هو اكثر عيوبا منها
فتستسهل الرذائل وتكون مقلداً لاهل الشر وقد ذم تقليد
اهل الخير فكيف تقليد اهل الشر . لكن مثل بين نفسك
وبين من هو افضل منك فحينئذ يتلف عجبك وتفيق من هذا
الداء القبيح الذي يولد عليك الاستخفاف بالناس وفيهم بلا
شك من هو خير منك فاذا استخففت بهم بغير حق استخفوا
بك بحق لان الله تعالى يقول . وجزاء سيئة سيئة مثلها .
فتولد على نفسك الاستخفاف بك بل على الحقيقة مع
مقت الله عز وجل وطمس ما فيك من فضيلة . فان اعجبت
بعقلك ففكر في كل فكرة سوء تحل بخاطرك وفي اضاليل
الاماني الطائفة بك فانك تعلم نقص عقلك حينئذ . وان اعجبت
بآرائك فتفكر في سقطاتك واحفظها ولا تنسها وفى كل رأي

قدرته صوابا نخرج بخلاف تقديرك وأصاب غيرك واخطأت
انت . فانك ان فعلت ذلك فأقل أحوالك ان يوازن سقوط
رأيك صوابه فتخرج لالك ولا عليك والاغلب ان خطأك
اكثر من صوابك وهكذا كل احد من الناس بعد النبيين
صلوات الله عليهم . وان اعجبت بخيرك فتفكر في معاصيك
وفي تقصيرك وفي معايبك ووجوهه فوالله لتجدن من ذلك
ما يغلب على خيرك ويعفي على حسناتك فليطل همك حينئذ
وأبدل من العجب تنقصاً لنفسك . وان اعجبت بعلمك فاعلم
أنه لا خصلة لك فيه وأنه موهبة من الله مجردة وهبك اياها
ربك تعالى فلا تقابلها بما يسخطه فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك
بها تولد عليك نسيان ما علمت وحفظت . ولقد اخبرني عبد
الملك ابن طريف وهو من أهل العلم والذكاء واعتدال
الاحوال وصحة البحث انه كان ذا حظ من الحفظ عظيم لا يكاد يمر
على سمعه شيء يحتاج الى استعادته وانه ركب البحر فمر به فيه هول
شديد انساه اكثر ما كان يحفظ وأخل بقوة حفظه إخلالا
شديداً لم يعاوده ذلك الذكاء بعد . وانا اصابتني علة فافقت
منها وقد ذهب ما كنت احفظ الا ما لا قدر له فما عاودته الا بعد



أعوام واعلم ان كثيرا من اهل الحرص على العلم يجدون في
القراءة والاكباب على الدرس والطلب ثم لا يرزقون منه حظا
فليعلم ذو العلم انه لو كان بالاكباب وحده لكان غيره فوقه (١)
فصح انه موهبة من الله تعالى فأي مكان للعجب هاهنا ما هذا
الا موضع تواضع وشكر لله تعالى واستزادة من نعمه واستعاذة
من سلبها . ثم تفكر أيضاً في أن ما خفي عليك وجهلته من
أنواع العلم ثم من اصناف علمك الذي تختص به فالذى أعجبت
بنفاذك فيه اكثر مما تعلم من ذلك فأجعل مكان العجب استنقاصاً
لنفسك واستقصاراً فهو اولى . وتفكر فيمن كان أعلم منك تجدهم
كثيراً فلتهن نفسك عندك حينئذ وتفكر في اخلالك بعلمك
وانك لا تعمل بما علمت منه فعلمك عليك حجة حينئذ ولقد
كان اسلم لك لو لم تكن عالماً واعلم ان الجاهل حينئذ اعقل منك
وأحسن حالاً واعذر فليسقط عجبك بالكلية ثم لعل علمك
الذي تعجب بنفاذك فيه من العلوم المتأخرة التى لا كبير خصلة
فيها كالشعر وما جرى مجراه . وانظر حينئذ الى من علمه
أجل من علمك في مراتب الدنيا والآخرة فهون نفسك

(١) كذا في الاصل

عليك . وان اعجبت بشجاعتك فتفكر فيمن هو اشجع منك ثم انظر في تلك النجدة التي منحك الله تعالى فيم صرفتها فان كنت صرفتها في معصية فانت احمق لانك بذلت نفسك فيما ليس ثمناً لها . وان كنت صرفتها في طاعة فقد افسدتها بعجبك ثم تفكر في زوالها عنك بالشيخوخة وانك ان عشت فستصير من عدد العيال وكالصبي ضعفاً . على اني ما رأيت العجب في طائفة اقل منه في اهل الشجاعة واستدللت بذلك على نزاهة انفسهم ورفعتها وعلوها . وان اعجبت بجاهك في دنياك فتفكر في مخالفيك واندادك ونظرائك ولعلهم اخساء وضعاء سقاط فاعلم انهم امثالك فيما انت فيه ولعلهم ممن يستحي من التشبه بهم لفرط رذالتهم وخساستهم في انفسهم واخلاقهم ومنابتهم فاستحصن بكل منزلة شاركك فيها من ذكر وان كنت مالك الارض كلها ولا مخالف عليك وهذا بعيد جدا في الامكان فما نعلم احدا ملك معمور الارض كله على قلته وضيق ساحته بالاضافة الى غامرها فكيف اذا اضيف الى الفلك المحيط فتفكر فيما قال ابن السماك للرشيد وقد دعا بحضرته بقدح فيه ماء ليشربه فقال له يا امير المؤمنين فلو منعت

هذه الشربة بكم كنت ترضى ان تبتاعها؟ فقال له الرشيد بملكي كله . قال يا امير المؤمنين فلو منعت خروجها منك بكم كنت ترضى ان تفتدي من ذلك قال بملكي كله . قال يا امير المؤمنين اتغتبط بملك لا يساوي بولة ولا شربة ماء . وصدق ابن السماك رحمه الله . وان كنت ملك المسلمين كلهم فاعلم ان ملك السودان وهو رجل اسود مكشوف العورة جاهل يملك أوسع من ملكك . فان قلت انا اخذته بحق فلعمري ما اخذته بحق اذا استعملت فيه رذيلة العجب واذا لم تعدل فيه فاستحي من حالك فهي حالة رذالة لا حالة يجب العجب فيها . وان اعجبت بمالك فهذه اسوء مراتب العجب فانظر في كل ساقط خسيس فهو اغني منك فلا تغتبط بحالة يفوقك فيها من ذكرت (واعلم) ان عجبك بالمال حمق لانه احجار لا تنتفع بها الا ان تخرجها عن ملكك بنفقتها في وجهها فقط والمال ايضاً غاد ورائح وربما زال عنك ورأيته بعينه في يد غيرك ولعل ذلك يكون عدوا . فالعجب بمثل هذا سخف والثقة به غرور وضعف . وان اعجبت بحسنك ففكر فيما يولد عليك مما نستحي نحن من اتيانه وتستحي انت منه اذا ذهب عنك بدخولك في السن

وفيما ذكرنا كفاية . وان اعجبت بمدح اخوانك ففكر في ذم اعدائك اياك فحينئذ ينجلي عنك العجب . فان لم يكن لك عدو فلا خير فيك ولا منزلة اسقط من منزلة من لاعدو له فليست الا منزلة من ليس لله تعالى عنده نعمة يحسد عليها عافانا الله . فان استحقرت عيوبك ففكر فيها ولو ظهرت الى الناس وتمثل اطلاعهم عليها فحينئذ تخجل وتعرف قدر نقصك ان كانت لك مسكة من تمييز (واعلم) بانك ان تعلمت كيفية تركيب الطبائع وتولد الاخلاق من امتزاج عناصرها المحمولة في النفس فستقف من ذلك وقوف يقين على ان فضائلك لاخصلة لك فيها وانما منح من الله تعالى لو منحها غيرك لكان مثلك وانك لو وكلت الى نفسك لعجزت وهلكت فاجعل بدل عجبك بها شكرا لواهبك اياها واشفاقا من زوالها فقد تتغير الاخلاق الحميدة بالمرض وبالفقر وبالخوف وبالغضب وبالهرم . وارحم من منع مامنحت ولا تتعرض لزوال مابك من النعم بالتعاصي على واهبها تعالى وبان تجعل لنفسك فيما وهبك خصلة أوحقاً فتقدر انك استغنيت عن عصمته فتهلك عاجلا وآجلا . ولقد اصابتني علة شديدة ولدت على ربوا في

الطحال شديداً فولد ذلك على من الضجر وضيق الخلق وقلة الصبر والنزق امرا جاشت نفسي فيه اذ انكرت تبدل خلقي واشتد عجبي من مفارقتي لطبعي وصح عندي أن الطحال موضع الفرح اذا فسد تولد ضده . وان اعجبت بنسبك فهذه اسوء من كل ما ذكرنا لان هذا الذي اعجبت به لافائدة له اصلا في دنيا ولا آخرة وانظر هل يدفع عنك جوعة أو يستر لك عورة أو ينفعك في آخرتك ثم انظر الى من يساهمك في نسبك وربما فيما هو أعلى منه ممن نالته ولادة الانبياء عليهم السلام ثم ولادة الفضلاء من الصحابة والعلماء ثم ولادة ملوك العجم من الاكاسرة والقياصرة ثم ولادة التبابعة وسائر ملوك الاسلام فتأمل غبراتهم وبقاياهم ومن يدلى بمثل ماتدلى به من ذلك تجد اكثرهم امثال الكلاب خساسة وتلقهم في غاية السقوط والرذالة . والتبدل والتحلي بالصفات المذمومة ولا تغتبط بمنزلة هم فيها نظراؤك أو فوقك . ثم لعل الآباء الذين تفخربهم كانوا فساقا وشربة خمور ولاطة ومغنين ونُوكَى أطلقت الايام ايديهم بالظلم والجور فانتجوا ظلما وآثارا قبيحة تبقى عارهم بذلك الايام ويعظم اثمهم والندم عليها يوم الحساب . فان كان كذلك فاعلم

أن الذي أعجبت به من ذلك داخل في العيب والخزي والعار والشنار لا في الاعجاب. فان اعجبت بولادة الفضلاء اياك فما أخلا يدك من فضلهم ان لم تكن أنت فاضلا. وما أقل غناهم عنك في الدنيا والآخرة ان لم تكن محسنا. والناس كلهم أولاد آدم الذي خلقه الله بيده وأسكنه جنته واسجد له ملائكته ولكن ما أقل نفعه لهم وفيهم كل عيب وكل فاسق وكل كافر واذا فكر العاقل في ان فضل أبائه لا يقربه من ربه تعالى ولا يكسبه وجاهة لم يحزها هو بسعده أو بفضله في نفسه ولا ماله فأي معنى للاعجاب بما لا منفعة فيه وهل المعجب بذلك الا كالمعجب بمال جاره وبجاه غيره وبفرس لغيره سبق كان على رأسه لجامه كما تقول العامة في أمثالها: كالغبي يزهى بذكاء أبيه. فان تعدى بك العجب الى الامتداح فقد تضاعف سقوطك لانه قد عجز عقلك عن مفارقة ما فيك من العجب هذا ان امتدحت بحق فكيف ان امتدحت بالكذب وقد كان ابن نوح وأبو ابراهيم وأبو لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم أقرب الناس من أفضل خلق الله تعالى وممن الشرفُ كله في اتباعهم فما انتفعوا بذلك. وقد كان في من وُلد لغير

رشدة(١) من كان الغاية في رياسة الدنيا كزياد وأبي مسلم ومن كان نهايةً في الفضل على الحقيقة كبعض من نُجِلّه عن ذكره في مثل هذا الفضل ممن يتقرب الى الله تعالى بحبه والاقتداء بحميد أثاره. وان أعجبت بقوة جسمك فتفكر في ان البغل والحمار والثور أقوى منك وأحمل للأثقال. وان أعجبت بخفتك فاعلم ان الكلب والارنب يفوقانك في هذا الباب فمن العجب العجيب اعجاب ناطق بخصلة يفوقه فيها غير الناطق

(واعلم) أن من قدّر في نفسه عجباً أو ظن لها على سائر الناس فضلا فلينظر الى صبره عند ما يدهمه من هم أو نكبة أو وجع أو دمّل أو مصيبة فان رأى نفسه قليلة الصبر فليعلم ان جميع أهل البلاء من المجزمين وغيرهم الصابرين أفضل منه على تأخر طبقتهم في التمييز وان رأى نفسه صابرة فليعلم انه لم يأت بشيء يسبق فيه على ما ذكرنا بل هو إما متأخر عنهم في ذلك أو مساوٍ لهم ولا مزيد. ثم لينظر الى سيرته وعدله أو جوره

(١) قال في اللسان وهو لرشدة وقد يفتح وهو نقيض زنية وفي الحديث من ادعي ولدا لغير رشدة فلا يرث ولا يورث: يقال هذا ولد رشدة اذا كان لنكاح صحيح كما يقال في ضده ولد زنية بالكسر فيهما ويقال بالفتح وهو افصح اللغتين

فيما خوله الله من نعمة أو مالٍ أو خول أو اتباع أو صحة أو جاه فان وجد نفسه مقصرة فيما يلزمه من الشكر لواهبه تعالى ووجدها حائفة في العدل فليعلم ان أهل العدل والشكر والسيره الحسنة من المخوَّلين اكثر مما هو فيه أفضل منه . فان رأى نفسه ملتزمة للعدل فالعادل بعيد عن العجب البتة لعلمه بموازين الاشياء ومقادير الاخلاق والتزامه التوسط الذي هو الاعتدال من الطرفين المذمومين . فان أعجب فلم يعدل بل قد مال الى جَنَبَةِ (١) الافراط المذمومة (واعلم) ان التعسف وسوء الملكة لمن خوّلك الله تعالي أمره من رقيق أو رعية يدلان على خساسة النفس ودناءة الهمة وضعف العقل لان العاقل الرفيع النفس العالى الهمة انما يغلب اكفاءه في القوة ونظراءه في المنعة . واما الاستطالة على من لا يمكنه المعارضة فسقوط في الطبع ورذالة في الخلق وعجز ومهانة ومن فعل ذلك فهو بمنزلة من يتبجح بقتل جرذ (٢) أو بقتل برغوث أو بفرك قملة وحسبك بهذا ضعةً وخساسةً (واعلم) ان رياضة الأنفس أصعب من رياضة الأُسد لان الاسد اذا سجنت

(١) اي الى ناحيته وجانبه (٢) الجرذ كصرد ضرب من الفأر

في البيوت التي تتخذ لها الملوك أمن شرها . والنفس وان سجنت لم يؤمن شرها . (العجب) أصل يتفرع عنه التيه والزهو والكبر والنخوة والتعالى وهذه أسماء واقعة على معان متقاربة ولذلك صعب الفرق بينها على اكثر الناس . فقد يكون العجب لفضيلة في المعجب ظاهرة . فمن معجب بعمله فيكفهر ويتعلق على الناس . ومن معجب بعلمه فيترفع ويتعالى . ومن معجب برأيه فيزهو (١) على غيره . ومن معجب بنفسه فيتيه . ومن معجب بجاهه وعلو حاله فيتكبر وينتحى . وأقل مراتب العجب ان تراه يتوقر عن الضحك في مواضع وعن خفة الحركات وعن الكلام الا فيما لا بدله منه من امور دنياه وعيب هذا اقل من عيب غيره . ولو فعل هذه الأفاعيل على سبيل الاقتصار على الواجبات وترك الفضول لكان ذلك فضلا وموجباً لحمدهم ولكن انما يفعلون ذلك احتقارا للناس واعجابا بانفسهم فحصل لهم بذلك استحقاق الذم . وانما الاعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى . حتي اذا اراد الامر ولم يكن

(١) هذا الفعل لم تتكلم به العرب الا مجهولا إلا ما حكي عن ابن دريد : زها يزهو زهوا اى تكبر

هناك تمييز يحجب عن توفية العجب حقه ولا عقل جيد. حدث من ذلك ظهور الاستخفاف بالناس واحتقارهم بالكلام وفي المعاملة حتى اذا اراد ذلك وضعف التمييز والعقل ترقى ذلك الي الاستطالة على الناس بالايدي واللسان والتحكم والظلم والطغيان واقتضاء الطاعة لنفسه والخضوع لها ان امكنه ذلك. فان لم يقدر على ذلك امتدح بلسانه واقتصر على ذم الناس والاستهزاء بهم. وقد يكون العجب لغير معني ولغير فضيلة في المعجب وهذا من عجيب ما يقع في هذا الباب وهو شيء يسميه عامتنا التَّمَتْرُك وكثيرا ما نراه في النساء وفيمن عقله قريب من عقولهن من الرجال. وهو عُجْبُ من ليس فيه خصلة أصلا لا علم ولا شجاعة ولا علو حال ولا نسب رفيع ولا مال يطغيه وهو يعلم مع ذلك انه صفر من ذلك كله لان هذه الامور لا يغلط فيها من يقذف بالحجارة وانما يغلط فيها من له أدنى حظ منها فربما يتوهم ان كان ضعيف العقل انه قد بلغ الغاية القصوى منها. كمن له حظ من علم فهو يظن انه عالم كامل. وكمن له نسب مُعْرِق في ظلمة وتجدهم لم يكونوا أيضا رُفعاء في ظلمهم فتجده لو كان ابن فرعون ذي الاوتاد ما زاد على اعجابه

الذي فيه. أوله شيء من فروسية فهو يقدّر انه يهزم عليا ويأسر الزبير ويقتل خالدا. أوله شيء من جاه رذلٍ فهو لا يرى الاسكندر على حال. أو يكون قويا على ان يكسب ما يتوفر بيده مؤمل بفضل(١) عن قوته فلو أخذ بقرني الشمس لم يزد على ما هو فيه وليس يكثر العجب من هؤلاء وان كانوا عجباً لكن ممن لا حظ له من علم أصلا ولا نسب البتة ولا مال ولا جاه ولا نجدة بل تراه في كفالة غيره مهتضما لكل من له أدنى طاقة وهو يعلم انه خال من كل ذلك وانه لا حظ له في شيء من ذلك ثم هو مع ذلك في حالة المزهو التياه. ولقد تسببت الى سؤال بعضهم في رفق ولين عن سبب علو نفسه واحتقاره الناس. فما وجدت عنده مزيدا على ان قال لي أنا حر لست عبد احد. فقلت له اكثر من تراه يشاركك في هذه الفضيلة فهم احرار مثلك الا قوما من العبيد هم أطول منك يدا وأمرهم نافذ عليك وعلى كثير من الاحرار فلم أجد عنده زيادة فرجعت الى تفتيش أحوالهم ومراعاتها فافكرت في

(١) كذا الاصل ولعل الصواب مؤملا ان الفضل حدث عن قوته الخ

ذلك سنين لاعلم السبب الباعث لهم على هذا العجب الذي
لاسبب لهم فلم أزل أختبر ماتنطوي عليه نفوسهم بما يبدو من
أحوالهم ومن مرامهم في كلامهم فاستقر أمرهم على انهم
يقدرون أن عندهم فضل عقل وتميز رأي أصيل لو أمكنتهم
الايام من تصريفه لوجدوا فيه متسعاً ولأداروا الممالك الرفيعة
ولبان فضلهم على سائر الناس ولو ملكوا مالاً لاحسنوا تصريفه
فمن ها هنا تسرب التيه اليهم وسرى العجب فيهم وهذا مكان
فيه للكلام ، شغب عجيب ومعارضة معترضة وهو انه ليس شي
من الفضائل كان المرء منه أغرى قوى ظنه في انه استولى عليه
واستمر يقينه في انه قد كمل فيه الا العقل والتميز حتى انك تجد
المجنون المطبق والسكران الطافح يسخران بالصحيح . والجاهل
الناقص يهزاء بالحكماء وأفاضل العلماء . والصبيان الصغار يتهكمون
بالكهول والسفهاء العيارين يستخفون بالعقلاء المتصاونين . وضعفة
النساء يستنقصن عقول اكابر الرجال وآراءهم وبالجملة فكلما انقص
العقل توهم صاحبه انه أوفر الناس عقلا وأكمل تمييزا ولا
يعرض هذا في سائر الفضائل فان العاري منها جملة يدري انه
عار منها وانما يدخل الغلط على من له أدنى حظ منها وان قل

فانه يتوهم حينئذ إن كان ضعيف التمييز انه علىّ الدرجة فيه
ودواء من ذكرنا الفقر والخمول ولا دواء لهم أنجع منه والا
فداؤهم وضررهم على الناس عظيم جدا فلا تجدهم الا عيابين
للناس ووقاعين في الاعراض مستهزئين بالجميع مجانبين
للحقائق مكبين على الفضول وربما كانوا مع ذلك متعرضين
للمشاتمة والمهارشة وربما قصدوا الملاطمة والمضاربة عند
أدنى سبب يعرض لهم . وقد يكون العجب كمينا فى
المرء حتى اذا حصل على ادنى مال اوجاه ظهر ذلك عليه
وعجز عقله عن قمعه وستره . ومن ظريف مارأيت في بعض
اهل الضعف ان منهم من يغلبه ما يضمر من محبة ولده الصغير
وامرأته حتي يصفها بالعقل في المحافل وحتى انه يقول هي
اعقل مني وانا اتبرك بوصيتها . واما مدحه اياها بالجمال
والحسن والعافية فكثير فى اهل الضعف جدا حتى كانه لو كان
خاطبها مازاد على مايقول فى ترغيب السامع في وصفها ولا
يكون هذا الا فى ضعيف العقل عار من العجب بنفسه (العاقل)
من لا يفارق ما اوجبه تمييزه من بديع مايقع فى الحسد قول الحاسد
اذا سمع انسانا يغرب فى علم ما هذا شيء بارد اذ لم يتقدم اليه

ولا قاله قبله أحد فان سمع من يبين ماقد قاله غيره قال هـذا بارد وقد قيل قبله . وهـذه طائفة سوء قـد نصبت أنفسها للقعود على طريق العلم يصدون الناس عنها لتكثر نظراؤهم من الجهال . ان الحكيم لاتنفعه حكمته عنـد الخبيث الطبع بل يظنه خبيثاً مثله وقد شاهدت أقواماً ذوي طبائع ردية وقـد تصـور في انفسهم الخبيثة ان الناس كلهم على مثل طبائعهـم لايصدقون أصـلا بان أحدا هو سالم من رذائلهم بوجه من الوجوه وهذا أسوء مايكون من فساد الطبع والبعد عن الفضل والخير ومن كانت هـذه صفته لاترجا له معاناة أبدا وبالله تعالي التوفيق (العـدل) حصن يلجأ اليـه كل خائف وذلك انك ترى الظالم وغير الظالم اذا رأي من يريد ظلمه دعا الى العدل وأنكر الظلم حينئذ وذمه ولا يرى أحـدا يذم من العدل فمن كان العدل في طبعه فهو ساكن في ذلك الحصن الحصين (الاستهانة) نوع من أنواع الخيانة اذ قد يخونك من لايستهين بك ومن استهان بك فقد خانك الانصاف . فكل مستهين خائن . وليس كل خائن مستهينا . الاستهانة بالمتاع دليل برب المتاع . حالان يحسن فيهما مايقبح في غيرهما وهما

المعاتبة والاعتذار فانه يحسن تعديد الأيادي وذكر الاحسان وذلك غاية القبح في ماعدا هاتين الحالتين . لاعيب على من مال بطبعه الي بعض القبائح ولو انه أشد العيوب وأعظم الرذائل مالم يظهره بقول أو فعل بل يكاد يكون أحمد من أعانه طبعه على الفضائل ولا تكون مغالبة الطبع الفاسد الا عن قوة عقل فاضل (الخيانة) في الحرم اشد من الخيانة في الدماء . العرض اعز على الكريم من المال . ينبغي للكريم ان يصون جسمه بماله ويصون نفسه بجسمه ويصون عرضه بنفسه ويصون دينه بعرضه ولا يصون بدينه شيأ اصلا . الخيانة في الاعراض اشد من الخيانة في الاموال . وبرهان ذلك انه لايكاد يوجد من لايخون في العرض وان قل ذلك منه وكان من أهل الفضل . وأما الخيانة في الأموال وان قلت أو كثرت فلا تكون الا من رذل بعيد عن الفضل . القياس فى أحوال الناس قد يكذب فى أكثر الأمور ويبطل في الأغلب واستعمال ماهذه صفته في الدين لايجوز . المقلد راض ان يغبن عقله ولعله مع ذلك يستعظم ان يغبن فى ماله فيخطئ في الوجهين معا . لانه لايكره الغبن في ماله ويستعظمه الا لئيم الطبع دقيق الهمة مهين

النفس . من جهل معرفة الفضـائل فليعتمد على ما أمره الله ورسوله صلى الله عليـه وسـلم فانه يحتوي على جميع الفضائل (رب) مخوف كان التحرز منه سبب وقوعه. رب سر كانت المبالغة في طيه سبب انتشاره . ورب إعراض أبلغ في الاستراية من ادامة النظر . وأصل ذلك كله الافراط الخارج عن حد الاعتدال (الفضـيلة) وسـيطة بين الافراط والتفريط فكلا الطرفين مذموم والفضيلة بينهما حاشى العقل فانه لا افراط فيه الخطأ في الحزم خير من الخطأ في التضييع . من العجائب ان الفضائل مستحسـنة ومستثقلة والرذائل مستقبحة ومستخفة من أراد الانصاف فليتوهم نفسـه مكان خصمه فانه يلوح له وجه تعسفه . حد الحزم معرفة الصديق من العدو . وغاية الخرق والضعف جهل العدو من الصديق . لا تسلم عدوك لظلم ولا تظلمه وساوِ في ذلك بينه وبين الصـديق وتحفظ منه واياك وتقريبه واعلاء قدره فان هذا من فعل النوكي . من ساوى بين عدوه وصديقه في التقريب والرفعة فلم يزد على ان زهّد الناس في مودته وسهل عليهم عداوته ولم يزد على استخفاف عدوه له وتمكنه من مقاتله وافساد صديقه على نفسه والحاقه

بجملة أعدائه (غاية الخـير) ان يسلم عدوك من ظلمك ومن تركك اياه للظلم وأما تقريبه فمن شيم النوكي الذين قرب منهم التلف . وغاية الشر ان يسلم صديقك من ظلمك وأما ابعاده فمن فعل من لا عقل له ومن كتب عليه الشـقاء . ليس الحلم تقريب الاعداء ولكنه مسالمتهم مع التحفظ منهم . (قلما) رأيت أمراً أمكن فضيع إلاّ وفات فلم يمكن بعد . محن الانسان فى دهره كثيرة واعظمها محنته باهل نوعه من الانس . داء الانسان بالناس أعظم من دائه بالسـباع الكلبة والافاعي الضارية لان التحفظ من كل ما ذكرنا ممكن ولا يمكن التحفظ من الانس أصلا (الغالب) على الناس : النفاق ومن العجب انه لا يجوز مع ذلك عندهم الا من نافقهم . لو قال قائل فى الطبائع مزية لان أطراف الأضداد تلتقى لم يبعد من الصدق وقد نجد نتائج الاضداد تتساوى فنجد المرء يبكي من الفرح ومن الحزن . ونجد فرط المودة يلتقى مع فرط البغضة فى تتبع العثرات . وقد يكون ذلك سبباً للقطيعة عند عدم الصبر والانصاف كل من غلبت عليه طبيعة ما فانه وان بلغ الغاية من الحزم والحذر فانه مصروع اذا كويد من قبلها . كثرة المراتب تعلم

صاحبها الكذب لكثرة ضرورته الى الاعتذار بالكذب فيضرى عليه ويستسهله . أعدل الشهود على المطبوع على الصدق . وجهه لظهور الاسترابة عليه ان وقع في كذبة أوهم بها . وأعدل الشهود على الكذاب . لسانه لاضطرابه ونقض بعض كلامه بعضا . المصيبة في الصديق الناكث أعظم من المصيبة به (أشد الناس) استهالاً للعيوب بلسانه هو أشدهم استسهالا لها بفعله وتبين ذلك فى مشافهات أهل البذاء ومشاتمات الارذال البالغين غاية الرذالة من الصناعات الخسيسة من الرجال والنساء كاهل التعيش بالزمر وكنس الحشوش والخادمين في المجازر وكساكني دور الحمل المباحة لكراء الجماعات والساسة للدواب . فان كل من ذكرنا أشد الخلق رميا من بعضهم لبعض القبائح واكثرهم عيبا بالفضائح وهم أوغل الناس فيها وأشهرهم بها (اللقاء) يذهب السخائم فكان نظر العين للعين يصلح القلوب . فلا يسوءك التقاء صديقك بعدوك فان ذلك يفتر أمره عنده (أشد الاشياء) على الناس الخوف والهم والمرض والفقر . وأشدها كلها ايلاما للنفس الهم للفقد من المحبوب . وتوقع المكروه . ثم الخوف . ثم الفقر .

ودليل ذلك ان الفقر يستعجل ليطرد به الخوف فيبذل المرء ماله كله ليأمن . والخوف والفقر يستعجلان ليطرد بهما المرض فيغرر الانسان في طلب الصحة ويبذل ماله فيها اذا أشفق من الموت ويعود عند تيقنه به لو بذل ماله كله ويسلم ويفيق والخوف يستسهل ليطرد به الهم فيغرر المرء بنفسه ليطرد الهم وأشد الناس كلها ألمًا وجعٌ ملازم فى عضو ما بعينه . وأما النفوس الكريمة فالذل عندها أشد من كل ماذكرنا وهو أسهل المخوفات عند ذوي النفوس اللئيمة

فصل

من غرائب أخلاق النفس ينبغي للعاقل ان لايحكم بما يبدو له من استرحام الباكي المتظلم وتشكيه وشدة تلويه وتقلبه فقد وقفت من بعض من يفعل هذا على يقين انه الظالم المتعدي المفرط الظلم ورأيت بعض المظلومين ساكن الكلام معدوم التشكي مظهراً لقلة المبالاة فيسبق الي نفس من لايحقق النظر أنه ظالم وهذا مكان ينبغي التثبت فيه ومغالبة ميل النفس جملة وان لايميل المرء مع الصفة التي ذكرنا ولا عليها ولكن يقصد الانصاف بما يوجبه الحق على السواء (من عجائب الاخلاق

ان الغفلة مذمومة وان استعمالها محمود وانما ذلك لان من هو مطبوع على الغفلة يستعملها في غير موضعها وفى حيث يجب التحفظ وهى مغيب عن فهم الحقيقة فدخلت تحت الجهل فذمّت لذلك . وأما المتيقظ الطبع فانه لايضع الغفلة الا في موضعها الذي يذم فيه البحث والتقصي ويمدح التغافل فهماً للحقيقة واضرابا عن الطيش واستعمالا للحلم وتسكيناً للمكروه فلذلك حمدت حالة التغافل وذمت الغفلة . وكذلك القول فى اظهار الجزع وابطانه وفي اظهار الصبر وابطانه فان اظهار الجزع عند حلول المصائب مذموم لانه عجز مُظهِرُه عن ملك نفسه فأظهر أمراً لا فائدة فيه بل هو مذموم فى الشريعة وقاطع عما يلزم من الاعمال وعن التأهب لما يتوقع حلوله مما لعله أشنع من الامر الواقع الذي عنه حدث الجزع . فلما كان اظهار الجزع مذموماً كان اظهار ضده محمودا وهو اظهار الصبر لانه ملك للنفس واطراح لما لا فائدة فيه واقبال على مايعود وينتفع به في الحال وفى المستأنف وأما استبطان الصبر فمذموم لانه ضعف فى الحسّ وقسوة فى النفس وقلة رحمة . وهذه أخلاق سوء لاتكون الا فى أهل الشر وخبث الطبيعة وفى النفوس



السبعية الردية . فلما كان ما ذكرنا يقبح كان ضده محمودا وهو استبطان الجزع لما في ذلك من الرحمة والرقة والفهم لقدر الرزية فصح بهذا ان الاعتدال هو : ان يكون المرء جزوع النفس صبور الجسد بمعنى انه لايظهر فى وجهه ولا فى جوارحه شيء من دلائل الجزع وبالله التوفيق . لو علم ذو الرأي الفاسد ما استضر به من فساد تدبيره في السالف لا نجح بتركه استعماله فيما يستأنف

﴿ فصل في مطلع النفس الى مايستر عنها من كلام مسموع أو شيء يدنى الى المدح وبقاء الذكر ﴾

هذان أمران لايكاد يسلم منهما أحدٌ الا ساقط الهمة جدا أو من راض نفسه الرياضة التامة وقمع قوة نفسه الغضبية قمعاً كاملا أو عانى مداواة شرهِ النفس الى سماع كلام يستتر به عنها اورؤية شيء اكتتم به دون ان يفكر فيما غاب عنها من هذا النوع فى غير موضعه الذي هو فيه بل فى أقطار الارض المتباينة فان اهتم بكل ذلك فهو مجنون تام الجنون عديم عقل البتة . وإن لم يهتم لذلك فهل هذا الذي اختفى به عنه الا كسائر ماغاب عنه منه سواء ولا فرق . ثم ليزد احتجاجا على هواه

فليقل بلسان عقله لنفسه يانفس أرأيت ان لم تعلمي ان ههنا
شيئاً أخفى عليك اكنت تطلعين الى معرفة ذلك فلا بد من لا
فليقل لنفسه فكونى الآن كما كنت تكونين لولم تعلمي
بان ههنا شيئاً سترعنك فتريحي الراحة وتطردى الهم وألم القلق
وقبح صفة الشره وتلك غنائم كثيرة وأرباح جليلة وأعراض
فاضلة سنية يرغب العاقل فيها ولا يزهد فيها الاتام النقص .
وأما من علق وهمه وفكره بان يبعد اسمه في البلاد ويبقى
ذكره على الدهر فليتفكر في نفسه وليقل لها يانفس أرأيت
لو ذكرت بافضل الذكر في جميع اقطار المعمور أبد الابد الى
انقضاء الدهر ثم لم تبلغى ذلك ولا عرفت به أكان فى ذلك
سرور او غبطة أم لا ولا بد من لا ولا سبيل الى غيرها البتة
فاذا صح ذلك وتيقن فليقل يقينا انه اذا مات ولاسبيل له الى
علم انه يذكر أو انه لايذكر وكذلك وان كان حيا اذا لم يبلغه
ثم ليتفكر أيضاً في معنيين عظيمين (أحدهما) كثرة من
خلا من الفضلاء من الانبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم
أولا الذين لم يبق على أديم الارض لهم عند أحد من الناس
اسم ولا رسم ولا خبر ولا أثر بوجه من الوجوه . ثم من

الفضلاء الصالحين من أصحاب الانبياء السالفين ومن الفلاسفة
والعلماء والاخيار وملوك الأمم الدائرة وبناة المدن الخالية
واتباع الملوك. أيضاً الذين قد انقطعت أخبارهم ولم يبق لهم عند
احد علم ولا لاحد بهم معرفة أصلا البتة . فهل ضر من كان
فاضلا منهم ذلك أو نقص من فضائلهم او طمس من محاسنهم
أو حط درجتهم عند بارئهم عز وجل . ومن جهل هذا
الامر فليعلم انه ليس في شئ من الدنيا خبر عن ملوك من
ملوك الاجيال السالفة أبعد مما بايدي الناس من تاريخ ملوك
بنى اسرائيل فقط. ثم ما بايدينا من تاريخ ملوك اليونان والفرس
وكل ذلك لا يتجاوز ألفي عام فاين ذكر من عمر الدنيا قبل هؤلاء
أليس قد دثر وفني وانقطع ونسى البتة ؟ وكذلك قال الله تعالى
ورسلا لم نقصصهم عليك. وقال تعالى وقرونا بين ذلك كثيرا
وقال تعالى والذين من بعدهم لايعلمهم الا الله) فهل الانسان
وان ذكر برهة من الدهر الا كمن خلا قبل من الامم الغابرة
الذين ذكروا ثم نسوا جملة . ثم ليتفكر الانسان في من ذكر
بخير أو بشر هل يزيده ذلك عند الله عز وجل درجة أو
يكسبه فضيلة لم يكن حازها بفعله أيام حياته فاذا كان هذا

فليقل بلسان عقله لنفسه يانفس أرأيت ان لم تعلمي ان ههنا
شيئاً أخفى عليك اكنت تطلعين الى معرفة ذلك فلا بد من لا
فليقل لنفسه فكوني الآن كما كنت تكونين لولم تعلمي
بان ههنا شيئاً ستر عنك فتريحي الراحة وتطردى الهم وألم القلق
وقبح صفة الشره وتلك غنائم كثيرة وأرباح جليلة وأعراض
فاضلة سنية يرغب العاقل فيها ولا يزهد فيها الا تام النقص .
وأما من علق وهمه وفكره بان يبعد اسمه في البلاد ويبقى
ذكره على الدهر فليتفكر في نفسه وليقل لها يانفس أرأيت
لو ذكرت بافضل الذكر في جميع اقطار المعمور أبد الابد الى
انقضاء الدهر ثم لم تبلغى ذلك ولا عرفت به أكان فى ذلك
سرور او غبطة أم لا ولا بد من لا ولا سبيل الى غيرها البتة
فاذا صح ذلك وتيقن فليقل يقينا انه اذا مات ولا سبيل له الى
علم انه يذكر أو انه لايذكر وكذلك وان كان حيا اذا لم يبلغه
ثم ليتفكر أيضاً في معنيين عظيمين (أحدهما) كثرة من
خلا من الفضلاء من الانبياء والرسل صلى الله عليهم وسلم
أولا الذين لم يبق على أديم الارض لهم عند أحد من الناس
اسم ولا رسم ولا خبر ولا أثر بوجه من الوجوه . ثم من

الفضلاء الصالحين من أصحاب الانبياء السالفين ومن الفلاسفة
والعلماء والاخيار وملوك الأمم الدائرة وبناة المدن الخالية
واتباع الملوك أيضاً الذين قد انقطعت أخبارهم ولم يبق لهم عند
احد علم ولا لاحد بهم معرفة أصلا البتة . فهل ضر من كان
فاضلا منهم ذلك أو نقص من فضائلهم او طمس من محاسنهم
أو حط درجتهم عند بارئهم عز وجل . ومن جهل هذا
الامر فليعلم انه ليس في شيء من الدنيا خبر عن ملوك من
ملوك الاجيال السالفة أبعد مما بايدي الناس من تاريخ ملوك
بنى اسرائيل فقط . ثم ما بايدينا من تاريخ ملوك اليونان والفرس
وكل ذلك لا يتجاوز ألفي عام فاين ذكر من عمر الدنيا قبل هؤلاء
أليس قد دثر وفنى وانقطع ونسى البتة ؟ وكذلك قال الله تعالى
ورسلا لم نقصصهم عليك . وقال تعالي وقرونا بين ذلك كثيرا
وقال تعالى والذين من بعدهم لايعلمهم الا الله) فهل الانسان
وان ذكر برهة من الدهر الا كمن خلا قبل من الامم الغابرة
الذين ذكروا ثم نسوا جملة . ثم ليتفكر الانسان في من ذكر
بخير أو بشر هل يزيده ذلك عند الله عز وجل درجة أو
يكسبه فضيلة لم يكن حازها بفعله أيام حياته فاذا كان هذا

كما قلناه فالرغبة في الذكر رغبة غرور ولا معنى له ولا فائدة فيه أصلا لكن انما ينبغي ان يرغب الانسان في الاستكثار من الفضائل وأعمال البر التي يستحق من هي فيه الذكر الجميل والثناء الحسن والمدح وحميد الصفة فهى التي تقرب به من بارئه تعالى وتجعله مذكورا عنده عز وجل الذكر الذي ينفعه ويحصل على بقاء فائدته ولا يبيد أبد الأبد وبالله تعالى التوفيق

(شكر المنعم فرض واجب) وانما ذلك بالمقارضة له بمثل ما أحسن فاكثر ثم بالتهمم باموره بحسن الدفاع عنه . ثم بالوفاء له حيا وميتا ولمن يتصل به من ساقة وأهل كذلك . ثم بالتمادي على وده ونصيحته ونشر محاسنه بالصدق وطي مساويه مادمت حيا وتوريث ذلك عقبك وأهل ودك . وليس من الشكر عونه على الآثام وترك نصيحته فيما يتوتغ به دينه ودنياه بل من عاون من أحسن اليه على باطل فقد غشه وكفر احسانه وظلمه وجحد انعامه وأيضاً فان احسان الله تعالى وانعامه على كل حال أعظم وأقدم واهنأ من نعمة كل منعم دونه عز وجل فهو تعالى الذي شق لنا الابصار الناظرة وفتق فينا الآذان السامعة ومنحنا الحواس الفاضلة ورزقنا النطق والتمييز

اللذين بهما استأهلنا ان يخاطبنا وسخر لنا مافي السموات وما في الارض من الكواكب والعناصر ثم تفضل علينا من خلقه شيئاً غير الملائكة المقدسين الذين هم عمار السموات فقط فأين تقع نعم المنعمين من هذه النعم . فمن قدر أن يشكر محسنا اليه بمساعدته على باطل وبمحاباته فيما لايجوز فقد كفر نعمة أعظم المنعمين وجحد احسان أجل المحسنين اليه ولم يشكر وليّ الشكر حقا ولاحمد أهل الحمد اصلا وهو الله عز وجل . ومن حال بين المحسن اليه وبين الباطل واقامه على مرّ الحق فقد شكره حقا وادي واجب حقه عليه مستوفي ولله الحمد أولا وآخرا على كل حال

(في حضور مجالس العلم) اذا حضرت مجلس العلم فلا يكن حضورك الا حضور مستزيد علما وأجراً لاحضور مستغن بما عندك طالباً عثرة تشنعها أو غريبة تشيعها فهذه أفعال الأرذال الذين لايفلحون في العلم أبدا . فاذا حضرتها على هذه النية فقد حصلت خيرا على كل حال . وان لم تحضر على هذه النية فجلوسك فى منزلك أروح لبدنك واكرم لخلقك واسلم لدينك . فاذا حضرتها كما ذكرنا فالتزم أحد ثلاثة أوجه لارابع لها وهي : اما ان تسكت سكوت

الجهال فتحصل على أجر النية في المشاهدة وعلى الثناء عليك بقلة الفضول وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس . فان لم تفعل ذلك فاسئل سؤال المتعلم فتحصل على هذه الاربع محاسن وعلى خامسة وهي استزادة العلم . وصفة سؤال المتعلم ان تسئل عما لاتدري فان السؤال عما تدري سخف وقلة عقل وشغل لكلامك وقطع لزمانك بما لافائدة فيه لا لك ولا لغيرك وربما أدى الي اكتساب العداوات وهو بعد عين الفضول . واياك من أن تراجع مراجعة العالم . وصفة ذلك : ان تعارض جوابه بما ينقضه نقضا بينا . فان لم يكن ذلك عندك ولم يكن عندك الا تكرار قولك أو المعارضة بما لايراه خصمك معارضة فامسك . فانك لا تحصل بتكرار ذلك على أجر زائد ولا على تعليم ولا تعلم بل على الغيظ لك ولخصمك والعداوة التي ربما أدت الى المضرات . وحسبنا الله ونعم الوكيل . واذا ورد عليك خطاب بلسان أو هجمت على كلام في كتاب فاياك ان تقابله مقابلة المغاضبة الباعثة على المبالغة قبل ان تتبين بطلانه ببرهان قاطع . وأيضا فلا تقبل عليه اقبال المصدق به المستحسن اياه قبل علمك فتظلم في كلا الوجهين جميعا ولكن اقبال من

من يريد حظ نفسه في فهم ماسمع ورأى فالتزيد به علما وقبوله ان كان حسنا . أورده ان كان خطأ فمضمون لك ان فعلت ذلك الاجر الجزيل والحمد الكثير والفضل العميم (فرض) على الناس تعلم الخير والعمل به فمن جمع الامرين استوفى الفضلين معا ومن علمه ولم يعمل به فقد أحسن في التعليم وأساء في ترك العمل به فخلط عملا صالحا وآخر سيأ وهو خير من آخر لم يعلمه ولم يعمل به . وهذا الذي لا خير فيه أمثل حالا واقل ذما من آخر ينهى عن تعلم الخير ويصد عنه . ولو لم ينه عن الشر الا من ليس فيه منه شيء ولا أمر بالخير الا من استوعبه لما نهى أحد عن شر ولا أمر بخير بعد النبي صلى الله عليه وسلم . وحسبك بمن أدى رأيه الى هذا فسادا وسوء طبع وذم حال وبالله تعالى التوفيق

تم الكتاب والحمد لله وحده وصلاته وسلامه
على أفضل خلقه سيدنا محمد وعلى
اله وصحبه وعترته
الطاهرين أبدا
الى يوم الدين





فهرس



